كارول ديليني

Columbus's Ultimate Goal:

Jerusalem

كريستوفر كولومبوس ونبوءة القدس

نقله إلى العربية

فيصل بن علي الكاملي

WESTT
CENTER FOR WESTERN THOUGHT

كارول ديليني

كريستوفر كولومبوس ونبوءة القدس

Columbus's Ultimate Goal: Jerusalem

نقله إلى العربية

فيصل بن علي الكاملي

فهرس الموضوعات

المقدمة:

حلت وارتحلت ذكرى خمسِمائة عام على اكتشاف كولومبوس للقارَّةِ الأمريكية. احتفل البعض، واعترض آخرون. وُصف «الاكتشاف» بأنه «أعظمُ حدثٍ منذ خُلق العالم، باستثناء تجسُّد وموتِ خالقه»[1] (كما كتب فرنسيسكو لوبيز دي چومارا[2] عام ١٥٥٢)،[3] أو أعظمُ قارعة في تاريخ

شكر وتقدير: أجدني مَدينةً بالفعل لمكتبة جون كارتر براون بجامعة براون، ليس لمجرد تقديمها منحة «الوقف القومي للدراسات الإنسانية» للقيام بهذا البحث، بل لمصادرها التي لا تُبارى وطاقمها المتعاون، ولتوفيرها واحداً من أكثر الأجواء البحثية التي رأيتها إثارة. فبينما كنت أسعى جاهدة لأظل طافية فوق بحر الدراسات الكولومبية المتلاطم، كان عزائي أن وجدت علماء قد سبقوني إليه، فألقوا إليَّ حبل النجاة بما أكرموني به من علم وبصيرة. شكراً لكم بولين موفيت واطس، وَكارلا وَويليام فيليبس، وَنيكولاس وي-چوميز.

(١) هذا على اعتقاد النصارى بأن المسيح عيسى بنَ مريم عليهما السلام هو الله أو ابن الله، نزل إلى الأرض في صورة بشر (وهو التجسد)، ومات مصلوباً ليكفر عن خطايا بني آدم. [الكاملي]

(٢) آثرت عند تعريب الأعلام استعمال الجيم المثلثة (چ) مقابلاً لحرف (G) عندما يلفظ كالجيم القاهرية (غير المعطشة)، وأبقيته (ج) عندما يلفظ جيماً فصيحة. أما الأعلام التي وصلتنا معربة عن أسلافنا ولانت بها الألسن كـ«غرناطة» و«البرتغال»، فأثبتُّها كما هي. [الكاملي]

(٣) في نص هذا البحث سأذكر التواريخ الأصلية كلما أمكن، ثم تاريخ ورقم الصفحة للترجمة/ الطبعة الحديثة التي أستعملها. فإذا ما اقتبست من كولومبوس وضعت التاريخ الأصلي ثم تاريخ الطبعة الحديثة ثم الصفحة. أما البيانات المرجعية فيمكن الرجوع إليها تحت (Columbus)

العالم. فإما أن يكون كولومبوس قديساً (وقد رُشح بالفعل للقديسيَّة)، أو مذنباً مسؤولاً عن إبادة جماعية. أيمكن للمرء أصلاً أن يقول إن كريستوفر كولومبوس **اكتشف** أمريكا، بينما كان ملايين البشر يعيشون قبله في تلك البقاع؟ هل اكتَشف **أمريكا** عندما ظن أنه وجد درباً جديداً إلى آسيا؟[1]

سجالات لا تنقضي، وقضايا أضحت مُسيَّسة حتى كاد يتعذر معها النقاش المثقَّف المثقِّف؛ حتى إن المرء ليضع قدمه بحذر في الجدل المحتدم. ومع هذا كله، وبالرغم من الكتابات الغزيرة التي كتبها كولومبوس أو كُتبت حوله، فإن الأمريكان خارج الدائرة النُّخبوية لعلماء كولومبوس لا يزالون لا يعلمون سوى النزر اليسير عن الرجل ورسالته.

أناقش في هذا البحث بعض العقائد الدينية غير المشتهرة التي ارتكز عليها «مشروع جزر الهند» (Enterprise of the Indies)، لأنها قادرة في ظني على تغيير تقويمنا لكولومبوس

[في المراجع]. هذا الاقتباس من كتاب چومارا «التاريخ العام لجزر الهند» (*Historia General de las Indías*) يردُ غالباً. انظر جين ١٩٨٨ [١٩٣٠-١٩٣٣]: xv؛ وكذا ترجمة كين للسيرة التي سطرها فرديناند كولومبوس عن والده ١٩٩٢ [١٩٥٩]: xxiii.

(١) لنقاشات حول فكرة «الاكتشاف» انظر باتايون ١٩٧٢؛ كين ١٩٩٢؛ أوچورمان ١٩٦١؛ سيل ١٩٩٠؛ تودوروف ١٩٨٥ [١٩٨٤]؛ واشبيرن ١٩٦٢؛ زامورا ١٩٩٣؛ وآخرين.

بشكل جذري، وعلى إقالته من جزء من مسؤوليته عن تبعات المواجهة [مع السكان الأصليين](١).

كثيرون لا يعلمون أن كولومبوس لم يقم برحلة بحرية واحدة فحسب، بل بأربع رحلات. وآخرون يفجؤهم أن يعلموا أنه أعيد مُكبّلاً في الأصفاد بعد الرحلة الثالثة. والقلة القليلة من يعلمون أن مُنتهَى أَرَبِه وغايةَ مشروعِه إنما هو القدس! لكنّ ما قَيّده بتاريخ ٢٦ ديسمبر ١٤٩٢ في سجله المتعلق بالرحلة الأولى - وسنشير إليه من الآن فصاعداً باسم «اليوميات» (*Diario*)(٢) - والذي كُتب في الكاريبي،

---

(١) كل ما ورد في هذا الكتاب بين معقوفين [ ] فهو زيادات شارحة من المترجم، باستثناء الإحالات المرجعية وبعض المواطن التي أشير إليها في الحواشي. [الكاملي]

(٢) تُعرَف مدونة كولومبوس اليومية للرحلة الأولى ببساطة باسم (*Diario*) [اليوميات]، واقتباساتي منها مأخوذة عن طبعة دَنّ وَكيلي ١٩٨٩ «يومياتُ رحلةِ كريستوفر كولومبوس الأولى إلى أمريكا ١٤٩٢-١٤٩٣» (*The Diario of Christopher Columbus's First Voyage to America 1492-1493*). وقد اتبعوا «يوميات دي كولون» (*Diario de Colón*)، وهي ترجمة سطرية قام بها الدكتور كارلوس سانز (مدريد ١٩٦٢)، ولعلهم لم يطلعوا على طبعة روبرت فيوسن «مدونة كريستوفر كولومبوس» (*The Log of Christopher Columbus*)، التي نشرت قبل طبعتهم بمدة يسيرة جداً. والترجمات والطبعات أكثر من أن تسرد هنا؛ راجع ما ورد أعلاه لمزيد من المعلومات. فُقِدت المذكرات الأصلية، لكن بارتولوميه دي لاس كاساس، الذي كان يعرف كولومبوس ويمتلك نسخة مخطوطة تدعى «يومياتٌ مِن على متن [السفينة]» (*Diario de a bordo*)، أعد ملخصاً يشتمل على فقرات طويلة منقولة حرفياً. عنون لا كاساس للملخصه بـ«كتاب الملاحة الأولى» (*El*

لا يدع مجالاً للشك، فهو يصرح بأنه أراد أن يجد مِن الذهب ومِن مِثله من التوابل التي تكاد تعدله في القيمة «كميةً تتيح للملِكين [فرديناند وإيزابيلّا] ... أن يضطلعا بمهمة الخروج لغزو القبر المقدس ويتهيآ لها؛ **إذ بهذا حثثت** سموكم على إنفاق كل أرباح مشروعي هذا لغزو بيت المقدس.» (اليوميات ١٤٢٩ [١٩٨٨: ٢٩١، التأكيدات لـي]).[١] هذه العبارة تقتضي أنها لم تكن المرة الأولى التي ذكر فيها كولومبوس دافعَه إلى المشروع، ولم تكن الأخيرة.[٢]

(*libro de la primera navegación*)، وجعله في كتابه «تاريخ جزر الهند» (*Historia de las Indías*) الذي كتب بين عامي ١٥٢٧ و ١٥٦٢، ولم ينشر حتى عام ١٨٧٥! وباستثناء مقتطفات قصيرة، لم تصدر ترجمة إنجليزية لهذا المصدر الأهم للمدة الأولى من المواجهة. كذلك كان لابن كولومبوس فرديناند نسخة من «اليوميات» وقد أدرج كثيراً منها في سيرة والده التي كتبها عنه في بدايات القرن السادس عشر. وترى ميري كامبل مُحقةً أنها ليست مجرد مدونة كتبت على متن سفينة بل هي الأولى من نوعها - مذكراتٌ حوت انطباعاتٍ وانفعالاتٍ وأوصافاً أنثروبولوجية وربما رسوماتٍ وخرائط (١٩٨٨: ١٨٨).

(١) من المفارقات إذن أن هدف [استكشاف] «العالم الجديد هو استعادة المدينة القديمة [القدس]» (كَمنز ١٩٧٦، نقلاً عن وست ١٩٨٧: ٥٢).

(٢) يدّعي فيلان أن «فكرة كولومبوس في إنقاذ القبر المقدس بذَهَبِ جزر الهند كان أمنية عبَّر عنها أولاً أمام فرديناند وإيزابيلا عشية غادر «بالوس» في الثالث من أوغسطس من عام ١٤٩٢» (١٩٧٠: ٢٢). وقد يكون ذكَرَها قبل ذلك أثناء حصار غرناطة عام ١٤٨٩، عندما وصلت سفارة من سلطان مصر تدعو الإسبان إلى وقف قتالهم للمسلمين وإلا دمَّر «القبر المقدس» (انظر موريسون ١٩٤٢، ج ١: ١٣١).

لقد أراد كولومبوس أن يُسيِّر حملة صليبية جديدة لاستعادة الأرض المقدسة من الكفرة (يعني المسلمين). لم تكن هذه مجرد رغبة في استعادة أرض التوراة والمكان الذي سار فيه يسوع؛[1] بل كانت جزءاً من السيناريو الرؤيوي (apocalyptic)[2] الأكبر والأوسع الذي كان يؤمن به كولومبوس وكثيرٌ من معاصريه. يزعم ذلك السيناريو، المستمد من سفر الرؤيا من الكتاب المقدس، أن اعتناق كل البشر للنصرانية واحتلال بيت المقدس ثانيةً هما شرطان ضروريان لـ «المجيء الثاني» حين يعود المسيح قبل «نهاية الأيام».

لقد كان كولومبوس يستشعر بقوة دُنُوَّ هذه الواقعة؛ بل أصبح يستشعر أيضاً أنه سيلعب دوراً ربانياً في هذه الحدث العظيم. وثمة أدلة كثيرة من معاصريه ومن كتاباته هو - لا سيما سِفره المغمور (*Libro de las profecías*) أو «كتاب النبوءات» - على أن هذه المعتقداتِ كانت راسخةً عند كولومبوس منذ القدم.

---

(١) أي عيسى عليه السلام.

(٢) رؤيوي: نسبة إلى سِفر «رؤيا يوحنا» آخر أسفار «الكتاب المقدس» عند النصارى. وقد جاءت الصفة الإنجليزية (apocalyptic) «رؤيوي» من الكلمة اليونانية (*Apokalupsis*) التي تعني «الكشف». ويُعد هذا السِفر عمدة النصارى في تفسير أحداث آخر الزمان. [الكاملي]

ستشغل مناقشةُ تديُّنِ كولومبوس ومعتقداتِه الدينية القسم الأول من هذا البحث؛ أما القسم الآخر فيتساءل عن سبب عدم ذيوع هذه المعتقدات بين العامة. يقترح التحليل الذي أقدمه أن جزءاً من المشكلة يكمن فيما افترضَتْه كتابة التاريخ التقليدية وفي (سوء) فهم الدين في أوساط الأكاديميين. إذ أُبين كيف أن نظرة كولومبوس الدينية للعالم، لا سيما أفكاره حول المكان والزمان، أثرت على تصوره للمشروع وما تكشَّف عنه. فحكاية هذه القصة عن كولومبوس في ظل السياق الثقافي الذي عاش فيه لن تغير فحسب تقويمنا له وتأطير التاريخ الأمريكي، بل ستقدم كذلك بُعداً يمكن من خلاله تفسير انتعاش الفكر النبوئي بين جماعات معينة من النصارى اليوم. ثم أذكر في التوصية الختامية أن هذا [الموضوع] يتطلب دراسة ناقدة للسيناريو النبوئي نفسه، قبل أن يصبح نبوءة تُحقِق ذاتها.

الدليل:

القول بأن كولومبوس كان رجلاً متديناً يؤكده ابنه وآخرون ممن عرفوه، من بينهم بارتولوميه دي لاس كاساس (Bartolomé de las Casas)، المؤرخ العظيم لتاريخ جزر الهند والمدافع عن الهنود. وهاك ما قاله عن كولومبوس:

«كان محافظاً على صيامات الكنيسة بكل إخلاص، وغالباً ما اعترف بخطاياه للكاهن وتناول القربان المقدس. كان يصلي صلوات السواعي [الأجبية] كما لو كان أحدَ رجال الكنيسة أو عضواً في تنظيم ديني، وكان يمقت التجديف، والحلِف الكاذب، وكان مخلصاً لسيدتنا، وللأب السيرافي القديس فرنسيس؛ وبدا ممتناً جداً للرب لِما منحته اليد الإلهية من النعم. ... وكان بخاصةٍ متأثراً ومخلصاً لفكرة أنْ عَدَّه الربُّ جديراً بالإعانة على استعادة القبر المقدس» (حوالي عام ١٥٢٧ [موريسون ١٩٤٢، ١: ٦٣]).[1]

إن «اليوميات» ملآى بالأدلة على أن كولومبوس في أثناء رحلاته كان يصلي غالباً، ويحافظ على صلوات السواعي على متن السفينة، لا سيما صلاة باكِر (Prime)، وصلاة الساعة الثالثة (Terce)، وصلاة الغروب (Vespers)، وصلاة النوم (Compline). عند «صلاة الغروب، ترتفع الأيدي، ويُقرأ وردٌ قصيرٌ، وتنشد ترنيمة «السلام عليك يا سلطانة» (*Salve Regina*)، وتُبدَّل الخفارة» (موريسون ١٩٦٣: ٤٤). كان يستعد جاداً لقداس الأحد ويؤمن برحمة الحج المخلِّصة (انظر فلينت ١٩٩٢؛ مِيلو ١٩٨٣). وفي مناسبات

---

(١) هذه الفقرة أوردها وترجمها موريسون (١٩٤٢، ١: ٦٣) نقلاً عن طبعة ١٩٢٧ من «تاريخ جزر الهند» (*Historia de las Indías*) التي حررها جونزالو دي ريباراز (Gonzalo de Reparaz).

عدة أشير إليها في المذكرات نذر هو وطاقمه أن يحجوا إلى البقاع المقدسة إذا هم نجوا من البحار الغادرة والعواصف التي واجهوها.

كما أن إخلاصه يتضح من الأسماء التي أطلقها - كما صنع آدم - على الجزر التي «اكتشفها»؛ فمثلاً «سان سَلڤادور» (San Salvador) (على الخلاص)، «ترينيداد» (Trinidad) (على الثالوث)، «سانتا ماريا» (Santa Maria) (على مريم العذراء)، «جزيرة أسونسيون» (Isla de la Ascunción) (على صعود [مريم]). وكان يَعُد من أصدقائه جملةً من الكهنة والرجال المنتسبين إلى تنظيمات دينية، وكان كثيراً ما يقيم في الأديِرة أسابيع وشهوراً متتابعة.

زد على ذلك أن شاهد عيان ممن شهدوا عودته من رحلته الثانية، وهو أندريه برنالديز (Andrés Bernáldez) (مؤرخ وكاهن وصديق لكولومبوس) يذكر أن كولومبوس عندما «وصل إلى قشتالة في شهر يونيو من عام ١٤٩٦، (كان) لابساً لباس الرهبان الأوبزيرڤانت لتنظيم القديس فرنسيس، وكان يشبههم في هيئته، لكنه شَبهٌ أقل من شبهه في لباسه، وكان متمنطقاً زُنَّار التنظيم الذي لبسه لأجل التكريس» (منقول عن وست وكلينج ١٩٩١: ٥٨).

وبعض العلماء يعتقد أنه ربما التحق بالتنظيم الثالث للقديس فرنسيس، بمعنى أنه أصبح «ثالثياً» (Tertiary) - أي راهباً عادياً من الرهبان الفرنسيسكان الأوبزيرڤانت.[1] وقد دفن في لباسه هذا.

يتجلى تدينه كذلك في الطريقة التي صار يوقِّع بها تقاريره ورسائله أثناء وبعد الرحلة الأولى، إذ اختلق توقيعاً مُلغِزاً جديداً رمزياً انتهى بـ : (Xpo-ferens) أو «حامِل المسيح».[2] في هذا الوقت كان قد اعتقد أنه يحمل

---

(١) ميلو (١٩٨٣: ٤٢-٥١) وآخرون يعتقدونه أن هذا ربما كان السبب في عدم زواجه من بياتريز دي أرانا (Beatriz de Arana)، والدة ابنه الثاني فرديناند. فمن الممكن أنه كان حينها قد نذَر نذْر التبتُّل، فإنه خلافاً لبقية الطاقم ليس ثمة مطلقاً ما يشير إلى معاشرته نساءَ جزر الهند.

(٢) أول مثال هو رسالة كُتبت في هسبانيولا بتاريخ ٤ يناير ١٤٩٣ (ڤاريلا ٢٠٠٣: ٢١٨)، وجذاذة بتاريخ ٢٠ إبريل ١٤٩٣ (ڤاريلا ٢٠٠٣: ٢٢٦)، ورسالة قبل مغادرته للرحلة الثانية بتاريخ ٩ إبريل ١٤٩٣ (موريسون ١٩٦٣: ١٩٩؛ وتاتشر، ٣: ١١١). وثمة أمثلة أخرى كثيرة. انظر تاتشر (١٩٠٣-١٩٠٤) لصور الرسائل والتوقيع. كان التوقيع الكامل يتألف من أربعة أسطر:

.S.

S.A.S.

XMJ

Xpo-ferens

وقد حاول كثير من العلماء أن يفكوا رموزه، وستستمر المحاولات بلا شك (مثلاً، تاتشر ١٩٠٣-١٩٠٤؛ ميلو ١٩٨٣).

النصرانية عبر البحار كما حمل سميُّه القديسُ كريستوفر المسيحَ عبر المياه.[1]

كما نجد دليلاً وافراً على قناعات كولومبوس وأفكاره الدينية في كتاباته هو. وقد حُفظ لنا أكثر من تسعين وثيقة كتبها كولومبوس. وهي لا تقتصر على خلاصة «اليوميات» فحسب، بل تحوي روايات الرحلتين الثالثة والرابعة، وشهادات خطية قانونية، ووصية، ورسائل عدة (إلى الملوك، وأحد أبنائه، وأقاربه، وأصدقائه عدد منهم من الرهبان)، وأكثر من ٣٠٠٠ تعليق على حواشي كُتبه (وست ١٩٩٢ب: ٢٦٧). ولا تزال مكتشفات جديدة تظهر من وقت لآخر؛ ولكن لعل أكثرها أهمية سِفرُه غير المشتهر «كتاب النبوءات» (*Libro de las profecías*)، وهو مجموعة من الفقرات الكلاسيكية

---

(١) هناك خريطة لخوان دي لا كوسا (تقريباً ١٥٠٠) تحوي مرتسماً للقديس كريستوفر وهو يحمل المسيح عبر المياه، ويعتقد البعض أنها بالفعل صورة لكولومبوس. إن كان الأمر كذلك، فربما تكون الصورة الوحيدة المعروفة التي رسمت أثناء حياته؛ لكن انظر فيليبس (١٩٩٢)؛ فهي ترى أن هناك لوحة لكولومبوس، رسمها بيدرو بيروجيت (Pedro Berruguete) فيما يُزعم؛ ولو ثبتت فقد تكون الأقدم لأنها ستكون قد رسمت قبل وفاة بيدرو في السادس من يناير من عام ١٥٠٤. لكن انعدام الصورة لم يمنع الفنانين من ملء هذه الفجوة برسومات متخيلة. وعادة ما يصورونه جسيماً ذا وجه مستدير. مع أن كل الروايات تصفه وسيماً، وقوراً في مشيته، طويلاً، مستطيل الوجه، أحدب الأنف، شعره أحمر قد خالطه الشيب.

والكتابية[1] التي كان يعتقد كولومبوس أنها تنبأت بالاكتشاف وبارتباطه بنهاية الزمان الوشيكة. ولكن قبل أن نلتفت إلى تلك الوثيقة، دعوني أذكر بإيجاز بعض الأدلة الأخرى.

لقد جزمت بولين موفيت واطس (Pauline Moffitt Watts) - التي كتبت بشكل مطردٍ وبأسلوب بليغٍ عن أفكار كولومبوس الدينية - أن فكرتين مترابطتين يتردد صداهما خلال كتاباته: (١) تحويل[2] كل الشعوب إلى العقيدة النصرانية، و (٢) استعادة بيت المقدس (واطس ١٩٨٥: ٩٢). أما الأولى فمتعارف عليها، وأما الثانية فغير مشتهرة خارج دائرة علماء كولومبوس. وقد ذكر كولومبوس الفكرة الأولى من هاتين الفكرتين في الديباجة[3] التي استهل بها «اليوميات» التي أراد أن يقدمها في ختام رحلته لـ «الزعيمين النصرانيين جداً، النبيلين جداً، الفائقين جداً، القويين جداً،

(١) كتابيٌّ: ترجمة للكلمة الإنجليزية (biblical)، وتعني منسوبٌ إلى «الكتاب المقدس» (The Bible) خاصةً. [الكاملي]

(٢) يرد كثيراً في هذا البحث مصطلح «التحويل» (conversion) ويقصد به تحويل الشعوب عن عقائدها إلى عقيدة الكنيسة الكاثوليكية. [الكاملي]

(٣) كما هو الحال في كل ما يتعلق بكولومبوس، ثمة جدال حول «الديباجة». زامورا مثلاً يجعلها رسالة، ويعتقد أنها كتبت بعد مغادرته، وإنما وُجهت إلى التاج كوسيلة لإضفاء الشرعية على الرحلة (١٩٩٣: ٢١-٣٨). لكن التوقيت لا علاقة له هنا، فكثير من المؤلفين يكتبون «استهلالاً» بعد الانتهاء من الكتاب. ويبدو عندي أن الديباجة تأكيد مكتوب لما نوقش شفاهاً قبل ذلك.

ملكِ وملكةِ إسبانيا.» ثم يستمر فيذكر أحداث عام ١٤٩٢م التي أدت إلى رحيله، وهي نهاية الحرب ضد الموراكة (Moors) في غرناطة وإخراجُ اليهود، وهي أحداث وضعت مغامرته في سياق ديني.[1] فهو يُذكِّر الملك والملكة كيف أن الخاقان الأعظم ([إمبراطور] الصين)،

> ... أرسل إلى روما طالباً رجالاً عالمين بعقيدتنا المقدسة حتى يعلموه إياها، وكيف أن الأب الأقدس لم يبعثهم مطلقاً؛ وهكذا ضلت شعوب كثيرة، فوقعت في الوثنية واعتنقت نِحَلاً (*sectas*) باطلة ومضرة؛ وسُموكم، كونكما نصرانيين كاثوليكيين وملكين، ومحبين ومناصرين للعقيدة النصرانية المقدسة، وعدوين لعقيدة محمد الباطلة وكل الوثنيات والهرطقات، فكرتما في إرسالي - أنا كريستوبال كولون[2] - إلى مناطق الهند المذكورة لأرى الزعماء والشعوب والبلدان المذكورة، ومعالم البلدان وكلِّ شيء، **ولأرى كيف يمكن القيام بتحويلهم إلى عقيدتنا المقدسة**. وقد أمرتما ألا أذهب إلى المشرق براً، وهو الطريق المعتاد، بل بالدرب المؤدي إلى الغرب،

---

(١) يمكن أن ينظر إلى ربطه لهذه الأحداث كجزء من السياق الروحي الأوسع الذي توضع فيه رحلته (انظر ميلو ١٩٨٣؛ سويت ١٩٨٦: ٣٧٣، زامورا ١٩٩٣: ٣٢). انظر مينوكال (١٩٩٤: ٣-١٤) من أجل عرض ناقد لعدم انتباه المؤرخين إلى التزامن بين هذه الأحداث.

(٢) كريستوبال كولون (Cristóbal Colón) هي الصيغة الإسبانية لاسم كريستوفر كولومبوس. [الكاملي]

وهو درب لا نعلم يقيناً أن أحداً عبره من قبل (اليوميات ٢٩٤١ [١٩٨٩: ٩١، التأكيدات لي]).[١]

كان لائقاً بكولومبوس أن يحمل معه رسائل التحايا من الملوك (مع جعل فراغ لاسم المخاطَب)[٢] في حال التقى الخاقانَ الأعظم أو غيرَه من الأباطرة أو الملوك أو الزعماء، وأن يتخذ مترجماً هو لويس دي توريس (Luis de Torres)، وكان متحولاً[٣] يُحسن العبرية والكلدانية [الآرامية] وشيئاً

---

(١) كان كولومبوس قد قرأ كتاب ماركو بولو وعرف أن الخاقان الأعظم قد طلب رسلاً من البابا فلم يأتوه. كذاك طلب قبلاي خان من والد ماركو وعمه أن «يحضرا معهما عند عودتهما من القدس شيئاً من الزيت المقدس من المصباح الذي يبقى مشتعلاً عند قبر سيدنا يسوع المسيح الذي اعتقد قدسيته وأنه الإله الحق» (كومروف، مترجم، ١٩٣٠: ٨). أصبح الطريق «المعتاد» إلى الصين خطراً على النصارى بعد أن سيطر المسلمون عليه، لا سيما بعد فتح القسطنطينية على يد العثمانيين عام ١٤٥٣. فكان على الأوروبيين إن أرادوا الوصول إلى الصين وثرواتها الأسطورية أن يجدوا طريقاً آخر. بدأ المستكشفون البرتغاليون البحث عن طريقٍ بحري حول الرأس الإفريقي، ولكن نظراً لمعاهدة القصبة (*Alcáçovas*) ١٤٧٩، لم يتمكن المستكشفون الإسبان من دخول مياهـ«ـهم». وكان كولومبوس قد عرض خطته على ملك البرتغال الذي رفضها، فكان هذا سبب رحيله عام ١٤٨٥ إلى إسبانيا.

(٢) لا تزال نسخ من هذه الرسائل موجودة بتاريخ ٣٠ إبريل ١٤٩٢. انظر موريسون ١٩٤٢، ١: ١٤١؛ ١٩٦٣: ٣٠.

(٣) المتحولون (conversos): هم من أُكره من المسلمين أو اليهود في إسبانيا والبرتغال على اعتناق الكاثوليكية، لا سيما في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وقد كان لويس دي توريس أحد اليهود الذين اعتنقوا الكاثوليكية. [الكاملي]

من العربية. إذ من المستبعد أن أحداً في إسبانيا كان يعرف المنغولية أو الصينية، ولكن نظراً لـ «افتراض أن العربية أمُّ اللغات جميعها» (موريسون ١٩٤٢، ج ١: ١٨٧)، كان يُظن أنها ستفي بالغرض.[1] فلما وصلوا إلى كوبا بعث كولومبوس «لويس دي توريس» و«رودريچو دي خيريز» (Rodrigo de Xerez) داخل البلد مع اثنين من الهنود «بتعليمات حول كيفية السؤال عن مَلِك تلك الأرض وما ينبغي أن يقولوه له بالنيابة عن ملكَي قشتالة ... [وأن] يعطوه رسائلهما وهديةً، وأن يتحسسوا ظروفه ويكسبوا وُدَّه» (اليوميات ٢ نوفمبر ١٤٩٢ [١٩٨٩: ١٢٩]).

يتحدث كولومبوس خلال صفحات اليوميات عن طبيعة السكان الأصليين اللطيفة وسهولة اعتناقهم النصرانية لو أن الملِكين أرسلا أناساً ذوي دين يتعلمون لسانهم ويعلمونهم.[2] ويكتب أنه في أول لقاء أراد [مِن رُسل

---

(١) يرى همداني (١٩٧٩، حاشية ٣٩) أن كولومبوس أحضر متحدثاً بالعربية ليتحدث إلى التجار أو الملاحين أو المبعوثين الذين قد يصادفهم في منطقة المحيط الهندي، والذين قد يدلونه على الخاقان. وهذا رأي معقول إذا ما اعتبرنا قراءة كولومبوس لماركو بولو، لكنني لا أجد ذكراً لمثل هذا الدافع في وثائق كولومبوس. ولكن من المفارقات العجيبة الحديث بالعربية في العالم الجديد بينما كانت محظورة في العالم القديم (مينوكال ١٩٩٤: ١٢).

(٢) هذا يدل على أن الملكين، وليس كولومبوس، هما من قرر عدم إرسال كهنة أو إرساليين على متن الرحلة الأولى.

الملِكين] أن يكونوا ودودين، وأنه «أدرك أنهم شعب يحرَّر [من الضلال][1] ويحوَّل إلى عقديتنا المقدسة بالحب لا بالإكراه» (اليوميات ١١ أكتوبر ١٤٩٢ [١٩٨٩: ٦٥]). كما أنه يَعجب من جمال المكان، ولكن بالرغم من تجشُّمه رحلةً عبر المحيط اعتقد الكل أن أحداً لم يسبقه إليها، لم يدفعه جمالها ولا لطف أهلها إلى المكوث. ها هو يمضي قدماً؛ يسعى في وجود اليابسة ويُلح في طلب بضائع قيمة: البهارات، والألوة، واللبان، وطبعاً الذهب.[2]

عندما قرأتُ المذكرات للمرة الأولى لم أفهم لِـمَ بدا [كولومبوس] مدفوعاً لإيجاد الذهب؛ ولا غرو أنْ افترض الناسُ أن دوافعه كانت مرتزقة خالصة. لكنَّ هذا الفهم يتغير عندما يدرك المرء أن وجود الذهب لم يكن ضرورياً لمجرد سداد الناس الذين استثمروا في الرحلة (ودفعِهم إلى تمويل غيرها)، بل، كما يُلحظ من فقرة المذكرات المقتبسة أعلاه، كان [الذهب] جوهرياً إذا ما فكر يوماً أن يمول حملة صليبية

(١) عبارة [من الضلال] من إدراج المؤلف. [الكاملي]

(٢) شكلت التوابل سبباً آخر يدعم لأجله الملكان الإسبانيان رحلة كولومبوس. لم يكن طريق اليابسة قد قطع فحسب بسبب الفتح العثماني للقسطنطينية بل، وفقاً لدوچارد، كان البنادقة قد هيمنوا على ما يأتي من التوابل من مصر، «بفضل ترتيب إقصائي بين العرب وتجار البندقية الذين كانوا المنفذ الأوروبي الوحيد إلى فلفل وتوابل الهند» (دوچارد ٢٠٠٥: ٢٣).

أخرى. قد نستهجن اليوم هذا الدافع، لكن الناس في ذلك الزمن كانوا يشعرون بأنه واجب نصراني جدير.

في رسالة مؤرخة بـ ٤ مارس ١٤٩٣، يُظن أنها كتبت في البحر إلى الملك فرديناند والملكة إيزابيلا قبيل وصوله من رحلته الأولى، زعم كولومبوس: «إنني خلال سبعة أعوام من اليوم سأكون قادراً على أن أجهز لسموكم خمسة آلاف فارس، وخمسين ألف راجل، لغزو وانتزاع القدس، وهو الغرض الذي لأجله نهضت بهذا المشروع» (رسالة، ١٤٩٣ [زامورا ١٩٩٣: ١٩٠-٩٧]).[1] وبعد عشرة أعوام تقريباً، كان لا يزال يردد الفكرة. فقد جاء في رسالة كتبت في فبراير ١٥٠٢، ولعلها لم ترسل قط، إلى البابا الإسكندر السادس: «لقد نهضنا بهذا المشروع بهدف بذل ما يُستثمر لإنقاذ الهيكل المقدس والكنيسة المقدسة،» (رسالة ١٥٠٢

---

(١) هذه الرسالة التي ظهرت عام ١٩٨٩ نشرت في «كُرَّاس كريستوبال كولون» (*Libro Copiador de Cristóbal Colón*). وهناك ترجمة إلى الإنجليزية نشرت في زامورا ١٩٩٣: ١٩٠-١٩٧). كان مصدرها غير مألوف على الإطلاق، وصحتها لا تزال محل جدل. لكنها داخلة في الطبعة الأخيرة لكتاب ڤاريلا «النصوص والوثائق الكاملة» (*Textos y documentos completos*). إن كانت صحيحة فهي لَقِية مهمة للغاية وتجيب عن سؤالِ لِـمَ أرسلت الرسالة الأولى التي أعلنت الاكتشاف إلى لويس دي سانتانچل، فيما يبدو، بدلاً من الملكين. وإن لم تكن بقلم كولومبوس، فإن كاتبها كان مؤمناً بدوافعه.

[رسكوني ١٩٩٧: ١٧])،[1] ثم يذكر العدد ذاته للفرسان والجنود الذين يأمل في تجهيزهم.

وفي رسالة أخرى، تعرف بـ «الرسالة النادرة» (*Lettera Rarissima*)، كُتبت في ٧ يوليو من عام ١٥٠٣ في [جزيرة] هسبانيولا، وكانت موجهةً إلى الملكين، يصف كولومبوس أحداث الرحلة الرابعة، وفي آخر الرسالة تتكرر فكرة استعادة القدس: «القدس وجبل صهيون يجب أن يعاد بناؤهما بيدِ نصرانيٍّ؛ أما من سيكون هذا [النصرانيُّ] فيعلنه الرب على لسان نبيه في المزمور الرابع عشر. وقد قال الأباتي[2] يواقين [يواقيم] بأنه سيخرج من إسبانيا.»[3]

أخيراً، في التاسع عشر من مايو من عام ١٥٠٦، أي قبل موته بيوم، صادق كولومبوس على وصيته (Majorat) التي كان قد خطها في الثاني والعشرين من فبراير من عام ١٤٩٨ وألحقها في الخامس والعشرين من أغسطس من عام ١٥٠٥،

---

(١) لقراءة النص الإسباني، انظر ڤاريلا ٢٠٠٣: ٤٧٩-٤٨١؛ وأيضاً قادر ١٩٩٢: ٢٠٢-٢٠٣.

(٢) الأباتي (Abbot): لقب لرئيس الرهبنة أو الدير، ومعناه: الأب. [الكاملي]

(٣) انظر جين ١٩٨٨، كتاب ٢: ١٠٤. «يواقين» يكتب في أغلب الأحيان «يواقيم»؛ انظر أيضاً موريسون ١٩٦٣: ٣٨٣. الدراسة المعيارية ليواقيم الفلوري قامت بها مارجوري ريڤز (١٩٦٩). حول تأثيره على كولومبوس، انظر واتس ١٩٨٥، فيلان ١٩٧٠، وميلو ١٩٨٣.

ناصاً على أن يُنشأ صندوق لغرض تحرير القدس.[1] ومثل هذا الدليل ينبغي أن يكون أكثر من كافٍ لطمأنةِ من يشكك في صدق دوافعه؛ لكن ثمة المزيد من الأدلة.

كتاب النبوءات:

في كتاب النبوءات تتجلى أفكار كولومبوس. وكتاب النبوءات ليس في الحقيقة كتاباً بالمعنى المتعارف عليه، وإنما مجموعٌ يحوي فقرات مقتبسة من الكتاب المقدس (من سفر التكوين إلى سفر الرؤيا)؛ ومن عدة مؤلفين قدامى كأرسطو وبطليموس وسينيكا؛ ومن آباء الكنيسة كأوغسطين وجيروم وخريسوستوم؛ ومن مؤلفي القرون الوسطى من أمثال أكواييناس ودايِّي ويواقيم الفلوري وروجر بيكون. كما يشتمل على اقتباسات من القرآن وعلى كتابات عدد من المسلمين، كالفرغاني وابن رشد.[2] كان يراد لهذا المجموع أن يستعمل في كتابة قصيدة طويلة تُهدى إلى الملك والملكة. ومن دواعي الدهشة أن القصيدة، رغم عدم اكتمالها، بقي أصلها المخطوط، وهي اليوم محفوظة في المكتبة الكولومبية (Biblioteca Columbina) الملحقة بالكاتدرائية في إشبيلية.

---

(١) يمكن الاطلاع على ترجمة إلى الإنجليزية في تاتشر (١٩٠٤، ج ٣، ٦٤٦-٦٦٠)؛ وانظر أيضاً سويت (١٩٨٦: ٣٨١)، للنقاش حولها.

(٢) لقائمة بكل الأعمال المحال إليها، انظر وست وكلينج (١٩٩١: ٢٣-٢٦).

ويعتقد أن «كتاب النبوءات» أُلف في أثناء المدة التي تخللت عودة كولومبوس من الرحلة الثالثة في أواخر أكتوبر عام ١٥٠٠ إلى بداية الرحلة الرابعة في مايو ١٥٠٢. لكنَّ فقرةً تشير إلى كونه في جامايكا عام ١٥٠٤ ربما دلت على اصطحابه مسودة في الرحلة الأخيرة ليضيف عليها ويعدلها كما اقترح عليه صديقه الراهب الشارتري فراي جاسبار جوريسيو (Gaspar Gorricio).[1] وكان كولومبوس يقيم مع جوريسيو في دير «سيدتنا القديسة مريم في لاس كويڤاس» (Nuestra Señora Santa María de las Cuevas) بإشبيلية عندما لم يكن منشغلاً بالمنازعات القضائية المتعلقة بأنشطته ودعاواه.[2]

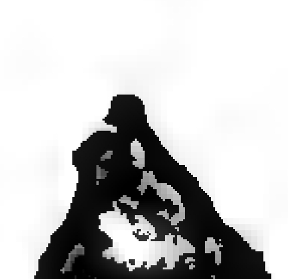
---

(١) الشارتري (Carthusian): منسوب إلى تنظيم الشارتريين؛ وهو تنظيم رَهباني كاثوليكي تأسس عام ١٠٨٤م في جبال شارتر (Chartreuse) الفرنسية على يد القديس برونو الكولوني. أما «فراي» (Fray) فلقب تشريف للرهبان في اللغة الإسبانية. [الكاملي]

(٢) انظر «كتاب الامتيازات» (The Book of Privileges) (نادر ١٩٩٦). ولا بد أن يشار إلى أن كتاب النبوءات لم يسطر كله بيد كولومبوس. في الحقيقة هناك أربعة خطوط تم تبينها: خطُّه هو، وخط ابنه فرديناند، وخط الأب جوريسيو، وخطٌّ آخر. لكنْ يعتقد أنها كلها تخضع لترتيب كولومبوس؛ إذ لم يكن منشغلاً في تلك المدة فحسب، بل كانت الكتابة تؤلمه جراء التهاب مفاصل يديه. ولا يزال بعض مراسلات كولومبوس وجوريسيو حول المشروع باقياً.

كانت تلك مرحلةً حرجةً في حياة كولومبوس، فقد تلقى التاجُ [الإسباني] تقارير تفيد بأن المستعمرة في هسبانيولا تعيش حالة من الفوضى. وبطلب من كولومبوس أرسل التاج شخصاً ما للتحقيق في الأمر. صُدم المحقق فرنسيسكو دي بوباديلا بما رأى، وعندما عاد كولومبوس من الريف أَمر باعتقاله وأعاده إلى إسبانيا مُكبّلاً.[1] ومع أن الملكة إيزابيلا والملك فرديناند عفيا عنه،

(١) كان كولومبوس بحاراً، على كل حال، ولم يتلق تدريباً ليكون مدير مستعمرات. بدأت المكاره تحدث منذ ١٤٩٣، عندما تُرك الناس بعد جنوح سفينة سانتا ماريا. فقد عصوا أوامره الصريحة بعدم الإضرار بالهنود واحترام «الكاسيكي» (cacique) [زعيم القبيلة] الذي كانوا مدينين له بالكثير، وألا يتفرقوا بل يبقوا مجتمعين، وألا يمارسوا العنف ضد النساء؛ باختصار، أن يكونوا قدوات (انظر تاتشر، ١: ٦٣٢). وبالعكس كان سلوكهم سافراً: فقد اغتصبوا النساء، وحاولوا إجبار الأهالي على خدمتهم. فقتل جميعهم قبل عودة كولومبوس في رحلته الثانية. كما أن المستعمرين الذين أحضرهم معه في الرحلة الثانية افترضوا أن بإمكانهم العيش في رغد بينما يستعبدون الأهالي. وعلى حد تعبير كولومبوس «كانت جماهير جشعة.» كان لاس كاساس يتحدث دائماً باحترام وإعجاب حول كولومبوس، حتى مع انتقاده لبعض سياساته الانتهازية. ولا ننسى أن لاس كاساس كان بنفسه من مُلاك الرقيق قبل أن يتحول إلى الدفاع عنهم بعد سنوات عدة من سماعه موعظةً عام ١٥١١ لأنطونيو دي مونتيسينوس (Antonio de Montesinos). لم يتسنَّ لكولومبوس أبداً أن يستمع إلى تلك الموعظة لأنه كان قد مات قبلها بخمس سنين. ولكن حتى كمدافع عن الهنود، لا يمكن أن يُبَرأ لاس كاساس، فقد اقترح استيراد الرقيق من إفريقيا، وهو مسؤول عن جانب كبير من تلك المأساة.



إلا أنه رأى ضآلة فرصته في استعادة منصبه نائباً وحاكماً للجُزر، وهو المنصب الذي مُنِحه في «امتيازات سانتا في» (Capitulations of Santa Fe) في السابع عشر من إبريل عام ١٤٩٢. قد يكون الأمر أن الملكين إنما أرادا تقليص الامتيازات التي منحوها لهذا الأجنبي في وقت لم تكن لديهم فكرة عما سيوجد في المستعمرة، إن وُجد. ويعتقد بعض العلماء أن الدافع الرئيس - في ظل هذه المصاعب - إلى تأليف «كتاب النبوءات» هو أنه أراد أن يستعيد مكانته في عيون الملِكين.[١] وآخرون، مثلي، بينما لا ينكرون نبرة التلطف في الرسالة الاستهلالية، ينظرون بالأحرى إلى المشروع باعتباره نتاج عملية طويلة من القناعة الدينية والحماس المسِيَّاني (messianic)، كما أنه محاولة لادعاء مكانه المستحق في التاريخ.[٢]

---

(١) من بين أولئك الذين يعتقدون أن الأمر متعلق بتعظيم الذات أو أنه نتاج خرف أو هذاء: هاريس وڤينيو وچرانزوتو وفلينت وسيْل وفرنانديز-أرمِستو.

(٢) لا بد أن هذا الأمر بدا أكثر إلحاحاً من باب أولى مع بدء انتشار أخبار رحلة ڤاسكو دي چاما إلى الهند ورحلة كابوت إلى القارة الأمريكية الشمالية. ظن كابوت - كما فعل كولومبوس - أنه وصل إلى آسيا، لكنها كانت «نيوفاوندلاند» (Newfoundland). وقد أرسل رجل إنجليزي يدعى جون دي (John Day) رسالة إلى كولومبوس عام ١٤٩٧ يُعلِمه بهذا الاكتشاف.

لكنني أرى أنه لا يمكن اعتبارُ كتاب النبوءات مجردَ ردِّ فعل على معاناته القريبة، بل قد مرَّ بالأحرى بمرحلة طويلة من الإنضاج. وهناك أدلة من فقرات مُبرَزة في كتبه، بعضها يعود إلى ما قبل رحلته الأولى، تشير إلى اهتمامه بالمواضيع المتعلقة بنهاية العالم والنبوءات. فقد كان كولومبوس، على مر السنين، يُبرز الفقرات في كتبه؛[1] فأحياناً يرسم يداً تشير إصبعها إلى فقرة مهمة، وغالباً ما كان يُدون ملحوظات على الهوامش تدعى (*postilles*) (وهي شكل قديم من أشكال

---

(١) من بين الكتب التي اقتناها كولومبوس ولا تزال باقية: كتاب بيير دايِّي «صورة العالم» (*Imago Mundi*) المطبوع بين ١٤٨٠ و ١٤٨٣، ويحوي ٨٩٨ تعليقاً هامشياً [لكولومبوس]؛ وكتاب إينياس سيلڤيوس بيكولوميني (البابا بيوس الثاني) «تاريخ المآثر في كل مكان» (*Historia rerum ubique gestarum*) (١٤٧٧، ٨٦١ تعليقاً)؛ وكتاب ماركو بولو «في عادات وأحوال بلاد المشرق» (*De consuetudanibus et conditionibus orientalium regionum*) (١٤٨٥، ٣٦٦ تعليقاً)؛ والترجمة الإيطالية لكتاب بلينيوس «التاريخ الطبيعي» (*Historia naturalis*) (١٤٨٩، ٢٤ تعليقاً)، وكتاب بلوتارخ «سير المشاهير» (*Las vias de los ilustres Varones*) (١٤٩١، ٤٣٧ تعليقاً)؛ وكتاب «المعجم المفهرس الأساسي للكتاب المقدس» (*Concordantiae Bibliae Cardinalis*) (القرن الخامس عشر، بدون تاريخ، بدون تعليقات، لكنه يحوي الكثير من العلامات التي تبرز الفقرات المهمة)؛ وكتاب القديس أنطونيوس الفلورنسي «خلاصة الاعتراف» (*Sumula confessionis*) (١٤٧٦)؛ و«طِرْسٌ» (palimpsest) من القرن الخامس عشر يحوي كتاب سينيكا «المآسي» (*Tragedies*) وكتاب أبراهام زكُوت «الروزنامة الثابتة، على أساس السنة» (*Almanach perpetuum, cuius radix est annum*) (١٤٧٣).

الملصقات). بعض الفقرات المبرَزة تتناول معلومات جغرافية وملاحية استعان بها على إقامة دعوى مقنعة أمام لجان من خبراء البلاط لدعم رحلته الأولى، بينما تناولت فقرات أخرى معتقداتِه المتعلقةَ بنهاية الزمان. وكما سأبين، فإن هذين الأمرين لا يمكن فصلهما.

أول جملة من كتاب النبوءات تعلن عن الغرض منه: «هنا يبدأ كتابُ أو دليلُ المصادرِ والأقوال والآراء والنبوءات المتعلقة بموضوع استعادة مدينة الرب المقدسة وجبل صهيون، والمتعلقة باكتشاف وتنصير جزر الهند وكل الشعوب والأمم الأخرى. إلى فرديناند وإليزابيث [إيزابيلا]، إلخ، ملِكَينا الإسبانيين» (النبوءات ١٥٠٠-١٥٠٢ [وست وكلينج ١٩٩١: ١٠١؛ قارن رسكوني ١٩٩٧].) وبالرغم من أنه لم يكن من المألوف على الإطلاق أن يكون رجل من العامة قادراً على القراءة، فضلاً عن أن يفسر ويعلق على الكتاب المقدس، إلا أن كريستوفر كولومبوس كان يَعلم ما يصنع (انظر أڤالوس ١٩٩٤ و ١٩٩٦ حول كولومبوس مفسِّراً للكتاب المقدس). وللبرهنة على هذا، وربما استباقاً للنقد، نجده ينتقل إلى وصف المناهج التي سلكها في تفسيره الكتابي. المنهج الأول هو المنهج الرُّباعي المستمد من أكوايناس، وچرسون وغيرهما، وهو منهج ينبغي

على المفسر أن يعتني فيه بالتفسير التاريخي والمجازي والأخلاقي والأخـروي. المنهج الثاني، وهو المعروف بـ«الاستشراف» (prefigurement)، وينسبه كولومبوس إلى إيسيدور الإشبيلي، ونيكولاس من ليرا. وفي هذا المنهج يُبيَّن تحققُ نبوءةٍ من العهد القديم في العهد الجديد. على سبيل المثال، يُعتقد أن قصة إبراهيم وذبحِه الوشيك لإسحاق[1] هي استشراف لتضحية الرب بابنه الوحيد. وكلا المنهجين لا يزال يستعمل في يومنا هذا، لا سيما الأخير من قِبل الأصوليين النصارى.[2]

تبتدئ الرسالة الاستهلالية التي أرفقها كولومبوس داخل مذكرته بقوله: «[أيها] الزعيمان النصرانيان جداً، الجليلان جداً، إن السبب عندي في استعادة القبر المقدس إلى الكنيسة الكاثوليكية المحارِبة هو التالي» (النبوءات ١٥٠٠-١٥٠٢ [تاتشر ١٩٠٤، المجلد ٣: ٦٦٠]).[3] إنها رسالة عاجلة

---

(١) يعتقد اليهود والنصارى أن الذبيح «إسحاق» وليس «إسماعيل» عليهما السلام. [الكاملي]

(٢) انظر ديليني ١٩٩٨: ١٣٧-٥١؛ آورباخ ١٩٥٣؛ فراي ١٩٧٤؛ هاردينج ٢٠٠٠؛ كولف ١٩٩٦، وآخرين.

(٣) الاقتباسات هنا من الترجمة الإنجليزية التي قام بها تاتشر (١٩٠٤، ج ٣: ٦٦٠)، وأرى أنه في هذا الموضع اتبع [الأصل] الإسباني بشكل دقيق. بالإضافة إلى أنه ترجم عبارة كولومبوس بأن العالم سينتهي خلال ١٥٥ عاماً، لا ١٥٠ عاماً كما في وست وكلينج (١٩٩١: ١٠٥).

تحذرهما من أن نهاية العالم ستكون بعد ١٥٥ عاماً. وقد تَوصَّل إلى هذا التاريخ من خلال الممارسة المألوفة في استعمال سلاسل الأنساب الكتابية لحساب عدد السنين من بدء الخليقة إلى المسيح إلى العام الحالي. في هذه الحادثة يستشهد كولومبوس بكتاب «بيان موافقة الحقيقة الفلكية للرواية اللاهوتية والتاريخية» (*Elucidario astronomice concordie cum theologica et hystorica veritate*)، من تأليف المرجع الأهم بالنسبة له «بيير دايِّي»: «من آدم إلى ربنا يسوع المسيح ٥٣٤٣ عاماً و ٣١٨ يوماً، وفقاً لحساب الملك دون ألونسو [هكذا؛ والصواب ألفونسو] ... وبإضافة ١٥٠١ عام غير مكتملة [أي: السنة التي يكتب فيها][1]، يكون المجموع ٦٨٤٥ عاماً» (النبوءات ١٥٠٠-١٥٠٢ [تاتشر ١٩٠٤، المجلد ٣: ٦٦٢]).

لقد حُددت نقطة النهاية؛ فمدة العالم سبعُ ألفِيَّات فقط بناءً على فكرة أن أيام الخلق تعدل سبعة آلاف سنة أرضية. يقتبس كولومبوس من «القديس أوغسطين الذي يقول بأن نهاية العالم ستكون في الألف السابعة من تاريخ خلقه ... [وعليه] فوفقاً لهذا الحساب، لم يبق إلا ١٥٥ عاماً على تمام الـ ٧٠٠٠، وهو العام ... الذي يجب أن ينتهي فيه العالم»

(١) هذا والذي قبله من إدراج المؤلف. [الكاملي]

(مرجع سابق). ويبدو أن حساباته المتعلقة بنهاية العالم تعود إلى ما قبل هذا التاريخ بكثير، ربما قبل الرحلة الأولى بعشرة أعوام إذا أمكننا الاحتجاج بواحدة من ملحوظاته الهامشية البالغة ٨٦١ ملحوظة، وقد كتبت في ١٤٨١، في نسخته من كتاب «تاريخ المآثر في كل مكان» لإينياس سيلڤيوس بيكولوميني (Aeneas Sylvius Piccolomini) (البابا بيوس الثاني) [ونصها]:

"*dese el comienc del mundo fasta estra era de 1481, son 5241 años.*"

«منذ بدء العالم إلى **عامنا ١٤٨١**، ثمة ٥٢٤١ عاماً.» (النبوءات [وست وكلينج ١٩٩١: ٢٢، التأكيدات لي]).[1]

وعلى أية حال، فبالنسبة لكولومبوس لم يبق سوى القليل من الوقت على تحقُّق كل النبوءات التي لا بد أن تتحقق قبل عودة المسيح قبل نهاية العالم.

أما ما تبقى من المخطوط فهو مجموعة من الفقرات التي اعتبرها كولومبوس تنبُّؤية. عدد لا بأس به منها يركز على

(١) كان كتاب (*Historia*) المنشور عام ١٤٧٧ من المصادر المفضلة لدى كولومبوس. وست وكلينج، وفلينت (١٩٨٥: ٨٥-٨٦) وآخرون يتخذون هذه الإشارة دليلاً على اهتمامه السابق لرحلته بأمور آخر الزمان. لكن تاڤياني يخالف في هذا ويعتقد أن كولومبوس لم يقرأ الكتاب إلا بعد ذلك بزمن (١٩٨٥: ٤٥١). وعلى الحالين، كان ذلك قبل الرحلة الأولى.

الجزر؛ على سبيل المثال: «اِسْمَعِي لِي أَيَّتُهَا الْجَزَائِرُ، وَاصْغَوْا أَيُّهَا الأُمَمُ مِنْ بَعِيدٍ» (إشعياء ٥١: ٥ب).[١] «اتخذ اكتشاف الجزر الجديدة مكانة أقوى باعتباره علامة على أن المجيء الثاني [للمسيح] على الأبواب» (چيليس ٢٠٠٤: ٤٣)،[٢] وهو ما عنى لكولومبوس ضرورة تحويل كل الشعوب التي وجدها [إلى النصرانية]. ولعله رأى أنه أو أن اكتشافَه هو الآيةُ المشار إليها هنا: «وَأَجْعَلُ فِيهِمْ آيَةً ... إِلَى الْجَزَائِرِ الْبَعِيدَةِ الَّتِي لَمْ تَسْمَعْ خَبَرِي وَلاَ رَأَتْ مَجْدِي» (إشعياء ٦٦: ١٩). كما أن فقرات أخرى في كتاب النبوءات وفي الخطاب المرفق تشير إلى ظهور المسيح الدجال، وإفناء نِحلة محمد، وأخيراً استعادة القدس.

الذهب:

لكن فقرات أخرى أيضاً تدور حول مناجم سليمان وذهبِ «أوفير» (Ophir) الذي اعتقد البعض وَفْرَته في جزر الهند الشرقية. وكونه الذهبَ الذي كان يبحث عنه كولومبوس

(١) هكذا في الأصل الإنجليزي، والصواب (إشعياء ٤٩: ١). [الكاملي]

(٢) جون چيليس: مؤرخ اجتماعي ثقافي، وأحياناً محاضر بجامعة ستانفورد. وقد كتب دراسة مبهرة حول تاريخ معنى «الجُزر» في التصور الغربي (٢٠٠٤). فقد كان يُفترض في فكر القرون الوسطى أن البحر الغربي منقط بالجزر، ولعله لم يكن من قبيل المصادفة أنه في «الزاوية اليمنى السفلية» من شعار النبالة الخاص بكولومبوس يوجد عدد من الجزر المذهَّبة. انظر تاتشر (١٩٠٣، ج ٢: ٥٣٦-٤٠) للاطلاع على الصور.

يتضح جلياً من إحالاته إلى جوسيفوس، ونيكولاس من ليرا، ومن ملحوظاته على كتابَي دانيِّي والبابا بيوس الثاني، وعلى الكتاب المقدس بوجهٍ خاص. على سبيل المثال «سُفُن الْمَلِك كَانَتْ تَسِيرُ إِلَى تَرْشِيشَ مَعَ عَبِيدِ حُورَامَ، وَكَانَتْ سُفُنُ تَرْشِيشَ تَأْتِي مَرَّةً فِي كُلِّ ثَلاَثِ سِنِينَ حَامِلَةً ذَهَبًا وَفِضَّةً وَعَاجًا وَقُرُودًا» (الأيام الثاني ٩: ٢١). ولأن كولومبوس افترض أن «ثلاث سنين» هو الزمن الذي استغرقته السفن جيئة وذهاباً، «استنتج أن مساحة اليابسة الآسيوية واسعة جداً بحيث يتطلب الأمر الإبحار عاماً كاملاً لقطع المسافة بين القدس وطرفها الشرقي» (روم ٢٠٠١: ٢٩-٣٠).[1] وهذا مما رسخ اعتقاده بأن آسيا تمتد أبعد مما كان يُظن إلى ذلك الحين، وعليه فإن المحيط ليس بالرحابة التي يعتقدها الناس.

من الواضح أن كولومبوس كان يفكر في مناجم الذهب السليمانية قبل تأليفه «كتاب النبوءات». فقد كتب صديقه بيتر مارتر (Peter Martyr) قبلها بخمسة أعوام إلى الكاردينال برناردينوس (Bernardinus) يخبره أن كولومبوس وجد مناجم «يَعتقِد أنها قد تكون أوفيرَ سليمانَ المنتجةَ للذهب.» في ذلك الوقت كان كولومبوس يظن أن [مناجم الذهب] تقع

---

(١) روم (٢٠٠١) ووست (١٩٩٢ب) مصدران مهمان لهذه القصة. انظر كذلك وست وكلينج (١٩٩١: ٢٢٣، ٢٤٧).

في هسبانيولا (مارتر، ٩ أوغسطس ١٤٩٥ [تاتشر ١٩٠٤، المجلد ١: ٧٥]).وبعدها، في أثناء الرحلة الرابعة، اعتقد أنه وجدها بالقرب من ڤيراچوا (Veragua)، على طول ساحل أمريكا الجنوبية. ويمكن للمرء أن يستشعر فرحته الغامرة في رسالة تعرف بـ «الرسالة النادرة» (*Lettera Rarissima*) بعثها كولومبوس إلى الملكين من جامايكا [يقول فيها]: «إن الذهب معدن يفوق كل المعادن، ومنه تكون الكنوز، ومن مَلَكَه صنع وأتم ما أراد في العالم، وفي النهاية يستعمله ليبعث الأرواح إلى الفردوس» (النادرة، ٣ يوليو ١٥٠٣ [تاتشر ١٩٠٤، المجلد ٢: ٦٩٥]).[1]

إذن كان البحث عن الذهب، على الأقل بالنسبة لكولومبوس، «بحثاً روحياً» أكثر من كونه مغامرة تجارية، ولم يكن وسيلة للتغيير بقدر ما كان «وسيلة للتحرير [من الخطيئة]» (سْويت ١٩٨٦: ٣٨٣). ثم يستمر قائلاً بأنه كما استعمل سليمانُ ذهب أوفير لبناء الهيكل، فكذلك «القدس وجبل صهيون، كما هو مكتوب، يجب أن يعاد بناؤهما بيدِ نصرانيٍّ» (مصدر سابق).[2] كان الذهب والمعادن النفيسة الأخرى تملأ قِلال إسبانيا. وقد أشار باولو إيميليو تاڤياني

(١) انظر كذلك جيْن ١٩٨٨، ج ٢: ١٠٤؛ موريسون ١٩٦٣: ٣٨٣.

(٢) انظر تاتشر ١٩٠٤، ج ٢: ٦٩٦.

(Paolo Emilio Taviani)، الكاتب الإيطالي العظيم الذي دوَّن سيرة كولومبوس، إلى أن التاج «استلم على وجه الدقة من المعادن النفيسة فقط في القرن التالي للاكتشاف مليوناً وسبعَمائة وثلاثةَ وثلاثين ديناراً مُرابطياً (maravedí) مقابِل كلِّ دينارٍ مرابطي استُثمر في تمويل رحلة كولومبوس» (١٩٨٥: ٥٠٠)!

إلا أن الذهب كان يعني أكثر من قيمته النقدية؛ ولم يكن مجرد معدن. فوفقاً للنظريات السيميائية الشعبية المتداولة في ذلك الحين، فإن الذهب ينمو أو ينضج (ميلو ١٩٨٣: ١٢٥-٢٨؛ فيليبس وفيليبس ١٩٩٢: ٢١٩). يكون المعدن في أوله جوهراً واحـداً، وبحسب البيئة التي يوجد فيها والقوى المؤثرة فيه يبلغ مراحل من الكمال والنقاء، وأكثرُ أشكاله نقاء الذهب.[١] وهذا لا يختلف عن نظرية السائل التوالدي عند أرسطو؛ وهي أن السائل يبدأ دماً ثم يمر بسلسلة من عمليات الهضم يصير بها حليبُ الأم ودمُ الحيض شكلين غير نقيين، بينما المني أكملها هضماً، فهو الوسط الفاعل القادر على أن يَكون أداة لانتقال الروح الخالدة.[٢] وبما أنه كان يُعتقد أن الذهب «يزيد ويضاعِف» ثروة من امتلكه،

(١) أنا مدينةٌ لنيكولاس وي-چوميز الذي أخذ بيدي إلى هذا الاتجاه.

(٢) انظر كتاب أرسطو «في توالد الحيوان» (*Generation of Animals*) حيث نظريتُه حول التكاثر.

فلعل هذا يفسر عادةَ بعضِ المجتمعات في إلقاء الذهب أثناء الأعراس طمعاً في حياة وَلودةٍ للعروسين.[1] على أية حال، فإن المنطقة المدارية التي كان يُظن فيما مضى أنها غير مأهولة، أصبحت المكان الذي يُعتقد أنه الأصلح في إنضاج وتنقية المعدن ليصير ذهباً؛ فحرارة الشمس هي الفاعل الأكبر في هذه العملية، إلى جانب دوران الأرض الذي يجعله يتراكم.[2] لقد كان الذهب قد وُجد في إفريقيا، ولهذا افتُرض أنه سيوجد على دائرة العرض نفسها في «الهند» حيث ذَكر دايِّي أن ثمة جبالاً من الذهب.

الدور النبوئي للاكتشاف:

كان الهدف من مختارات «كتاب النبوءات» أن تكون دليلاً على الدور الرئيس الذي قام به الاكتشاف في تجلية النبوءة الكتابية. بمعنى أن الأمر لم يكن مجرد صدفة، بل جزءاً لا يتجزأ من مسار العناية الإلهية. فلا غرو أن رأى كولومبوس دوره مبشَّراً به ومُلهَماً من قبل الرب، وأهم من ذلك كيف رأى

---

(١) كان هذا هو الحال على الأقل في القرية التي عشت فيها عامين أقوم ببحث أنثروبولوجي (ديليني ١٩٩١: ١٤٠).

(٢) قال خايم فيرير (Jaime Ferrer)، مستشار الملكة، لكولومبوس: «يوجد الذهب بوفرة قرب خط الاستواء، حيث الأقوام ذوو البشرة السمراء، وحيث يتسبب دوران الأرض في تراكمه» (وست ١٩٩٢أ: ٢٧٥، حاشية ٧٩). انظر كذلك نيكولاس وي-چوميز (بدون تاريخ).

نفسه المقصودَ بالنبوءات في سفر الرؤيا (٢١: ١) وإشعياء (٦٥: ١٧؛ ٦٦: ٢٢): «عن السماء والأرض الجديدتين اللتين صنعهما الرب، كما كتب يوحنا في سفر الرؤيا، بعد أن تكلم عنها على لسان إشعياء، جعلني رسولاً لهما، وأراني أين أذهب» (النادرة، أكتوبر ١٥٠٠ [موريسون ١٩٤٢، ١: ٦٩]).[1] كما أسَرَته مدةً طويلةً نبوءةٌ في [مأساة] «ميديا» لسينيكا، وأبرزَها في نسخته الخاصة: «سيأتي زمان يحطِّم فيه أوقيانوس [المحيطُ] أغلالَه، وتنكشف أرض عظيمة، ويكتشف طيفوسُ عوالم جديدة، ولن تعود ثُولي بعيدة.»[2] يقتبس الأصل في كتاب النبوءات ثم يكرره معدلاً إياه بإضافة عبارةِ أن بحاراً جديداً، مثل طيفوس، سيكتشف عالماً جديداً ولن تعود جزيرة ثولي (Thule) بعيدة. إن الاستعارة الغريبة

---

(١) كانت الرسالة قد كتبت إلى دونا [السيدة] خوانا دي توريس، أخت لويس. ويمكن الاطلاع على النص الكامل في عدد من المراجع. وقد نقلت عن موريسون (١٩٦٣: ٢٨٩-٢٩٨)، وتاتشر (١٩٠٣، ج ٢: ٤٢٣-٤٣٨). والأخير يحوي النص الإسباني.

(٢) نقلتُ عن ترجمة موريسون (١٩٤٢: ٧٩) لكونها أكثر شيوعاً لدى الأمريكان من رسكوني (١٩٩٧: ٢٩١) أو وست وكلينج (١٩٩١: ٢٢٧). ذكر كولومبوس أنه زار ثولي (آيسلندا)، لكن الأمر مثار جدل. فإلى جانب الفقرة التي علمها كولومبوس في «ميديا» أضاف فرديناند [ابن كولومبوس] حاشية جانبية يقول فيها: «هذه النبوءة تحققت في والدي ... الأميرال عام ١٤٩٢» (موريسون ١٩٤٢، ١: ٦٩). وهناك نسخة في مكتبة [جامعة] هارڤرد.

لمحيط موصدٍ بالسلاسل تُقدِّم ملمحاً من الأعمال الرمزية لكولومبوس ومعاصريه الذين اعتقدوا أنه سُلِّم المفتاح.

إنه يخبر الملكين أن الرب قد منحه القدرة على اكتساب المهارات الضرورية لاستكشاف البحر - الفَلك والتنجيم والجغرافيا والحساب وقراءة الخرائط[1] - كما أنه «شرَحَ عقلي لإمكانية الإبحار من هنا إلى جزر الهند الشرقية، كما شرَحَ إرادتي للرغبة في إتمام المشروع. كانت هذه النارَ[2] التي اشتعلت داخلي لـمَا جئت أزور سموكما.» ولكنه يزعم بعدها على الفور «أن كل العلوم التي ذكرتُ أعلاه لم تنفعني بشيء. والنُّقول عن آراء العلماء لم تغن شيئاً.» وإنما كان «روحُ القدس هو الذي شجعني بشعاع من السناء الباهر من أسفاره المقدسة» (النبوءات ١٥٠٠-١٥٠٢ [وست وكلينچ ١٩٩١: ١٠٥]). ثم أضاف بحصافةٍ أن الثقة التي منحه إياها الملكان حفزته أيضاً وجعلت رحلته ممكنة وناجحة. لذا يمكن أن يُنظر إلى «كتاب النبوءات» باعتباره الجهد الذي بذله لتشجيعهما وتحفيزهما على مشروع القدس الأبعد.

---

(١) حول المهارات اللازمة والآلات المتوفرة في ذلك العصر، انظر موريسون (١٩٤٢، ج ١: ٢٤٠-٢٥٣).

(٢) كلمة «نار» تعني هنا أكثر من مجرد «حماسة». ووفقاً لوست، هي «رمز نمطي من القرون الوسطى يشير إلى روح القدس باعتباره مقتبساً من النار التي نزلت في يوم الخمسين (Pentecost)» (١٩٨٧: ٥٤، حاشية ٦).

في إسبانيا، في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، كان ثمة معتقد سائرٌ حول «إمبراطور عالَم أخـروي»[1] يحقق ما كان يعرف بنبوءة «الرعية الواحدة والراعي الواحد» (*unum ovile unus pastor*) المذكورة في يوحنا ١٠: ١٦: «وَلِي خِرَافٌ أُخَرُ لَيْسَتْ مِنْ هذِهِ الْحَظِيرَةِ، يَنْبَغِي أَنْ آتِيَ بِتِلْكَ أَيْضًا فَتَسْمَعُ صَوْتِي، **وَتَكُونُ رَعِيَّةٌ وَاحِدَةٌ وَرَاعٍ وَاحِـدٌ**» (التأكيدات لي). هذا الإمبراطور سيقاتل المسيح الدجال ويعيد مُلك النصارى على القدس والأرض المقدسة. وكما سبق، فإن كولومبوس كان يعتقد أن خروج هذا الحاكم سيكون من إسبانيا؛ وقد أرفق في كتاب النبوءات رسالة من سُفَراء جَنَوِيين إلى البلاط الإسباني عام ١٤٩٢ [جاء فيها]: «قرأنا بالفعل أن يواقيم أباتيَّ جنوبِ إيطاليا قد تنبأ بأن الذي يستعيد ثروات صهيون ثانية يخرج من إسبانيا» (النبوءات ١٥٠٠-١٥٠٢؛ وِست وكلينج ١٩٩١: ٢٣٩]).[2]

---

(١) المقصود بكلمة «أخروي» في هذه الدراسة ما يتعلق بأحداث آخر الزمان لا بالآخرة. [الكاملي]

(٢) لا يهم إن كان مصدر النبوءة السابقة هو بالفعل يواقيم أو ترجمةُ كتابه التي قام بها أرنولد من ڤيلانوڤا، كما يرى فيلان (١٩٧٠: ١٣٦، حاشية ٢٧؛ انظر كذلك فلينت ١٩٩٢: ١٩٢)؛ المهم أن الكثير في ذلك العصر كانوا يؤمنون بها.

وفي المدة ما بين عام ١٥٦٩ وعام ١٥٧٦، مُزقت عشر صفحات عمداً بعد هذه النبوءة، لهذا نجد المؤرخ أمبروسيو دي موراليس (Ambrosio de Morales) الذي اطلع على المخطوط حينها يقول مؤنِّباً: «إن الذي نزع هذه الصفحات أساء صُنعاً، فقد كانت أفضل نبوءة في الكتاب.»[1]

ردود الفعل والساخطون:

من الواضح أن «كتاب النبوءات» عملٌ كلَّف صاحبه الكثيرَ من الجهد والوقت والتفاني؛ وأن كولومبوس تأمل طويلاً واعتنى به عناية فائقة. ولكن إن كانت هذه الأفكار الدينية جزءاً حميماً من فهم كولومبوس لـ «مشروع جزر الهند» فلِم لا تُعرف بشكل أوسع بين العامة؟[2] ولم «ظل» كتاب النبوءات «بلا دراسة ولا ترجمة لمدة تقارب ٥٠٠ عام» (وست ١٩٩٢أ: ٢٧٢)؟ في الواقع، عندما وجد ديلنو وست (Delno West) نسخة في مكتبة فايرستون بجامعة برِنستون عام ١٩٨٤، لم تكن صفحاتها قد مزقت بعد! لكن

---

(١) انظر رسكوني (١٩٩٧: ٩). حول هذه النبوءات يقول: «ليس من المنطق أن نعدِّد الفرضيات الكثيرة التي طرحت دون إسنادها بوثائق» (حاشية ٤٩).

(٢) لا أحد ممن حدثتهم عن هذا الكتاب العظيم - بما فيهم بعض علماء الدراسات الهِسبانية والدراسات المتعلقة - كان قد سمع به قط، وكلهم ذهلوا لما علموا به. يبدو أن جهود العلماء الذين كتبوا عن «كتاب النبوءات» وأفكار كولومبوس الدينية بل الرؤيوية لم تبلغ إلا جمهوراً متخصصاً جداً.

عدم العناية يمكن عزوُه جزئياً إلى التأخر في نشرها، ولكن كما سأبين بالحجة كان ذلك سبباً جزئياً فقط.

يبدو أنه بعد وفاة أبناء كولومبوس في القرن السادس عشر تنقلت المخطوطة عدة مرات، ثم حُفظت أخيراً مع وثائق كولومبوس الأخرى في مكتبة الكاتدرائية في إشبيلية ولا تزال هناك (انظر رسكوني ١٩٩٧: ١٠-١٢ لتاريخ وجيز لتنقلاتها). وفي القرون التالية، كانت المخطوطة معروفة - لا سيما عند أولئك الذين أشرفوا على مجموع [الوثائق] - ولكن لم يبذل سوى القليل من الجهد في سبيل نشرها. وأخيراً، في أوائل القرن التاسع عشر، نشر مارتن فرنانديز دي ناڤاريت (Martin Fernández de Navarrete) وصفاً مختصراً لها في طبعته من وثائق كولومبوس.[1] وكان واشنطن إيرڤينج - مؤلف قصتَي «أسطورة سليبي هولو» (*The Legend of Sleepy Hollow*) و«ريب ڤان وينكل» (*Rip Van Winkle*) - مولعاً بشخصية كولومبوس، فأتاح له ناڤاريت هذه المصادر.

---

(١) انظر كتاب دي ناڤاريت «المجموع» (*Colección*) (١٨٢٥). بعده بعقد من الزمان، نشر الإسكندر فون همبولت دراسة عن رحلات كولومبوس في خمسة أجزاء، وفيها أدرك «القوة الإقناعية» «للاهوت الباطني» ... لكنه احتار في هذا «الخليط الغريب من الأفكار والعواطف في رجل متفوق» لم يكن شجاعاً، متوقد الذكاء فحسب، بل كان أيضاً ناجحاً في تجارته (واتس ١٩٨٥: ٧٩).

وكانت النتيجة أن كتب إيرڤينج عام ١٨٢٧ في عدة مجلدات «حياة ورحلات كريستوفر كولومبوس» (*The Life and Voyages of Christopher Columbus*). وبحلول عام ١٨٦٦ كان إيرڤينج قد قرأ مخطوطة كتاب النبوءات، وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن من همته، إلا أنه أشار [قائلاً]: «لكي يُحصِّل المرء فهماً متكاملاً لشخصية ودوافع كولومبوس، من الأساسي أن يستصحب مشروعه الرؤيوي. وسيجد أنه قد ارتبط في ذهنه بمشروع الاكتشاف، وأن حملةً صليبيةً مقدسةً ستكون تتويجاً لتلك الأهداف الإلهية، وهو ما جعله يَعُد نفسه وسيطاً اصطفته السماء» (إيرڤينج ١٨٦٦، ١: ٢٨٦). ولكن في العام نفسه ظهر رد فعل مختلفٌ تماماً تجاه الوثيقة. فقد كتب العالم الفرنسي الأمريكي هنري هاريس (Henry Harrisse) في كتابه «تلويحات على كولومبوس» (*Notes on Columbus*) ما يلي:

> لا بد أن يُذكر كذلك أن الملاح العظيم، الذي أظهر لأعوام عديدة تبحراً في وصف العالم، لما شاخ واختلط، إن أمكننا الحكم من كتابه «كتاب النبوءات» الذي يُذكِّر الكلَّ حتماً بحال نيوتن المشابهة عندما كتب كتابه «ملاحظات على نبوءات [دانيال] ورؤيا [يوحنا]» (*Observations upon the Prophecies and Apocalypse*)، أنكر مطلقاً أن يكون قد استعار أي فكرة من الكتّاب القدامى (١٦٦٨: ٤٨).

في هذا العمل المضني والبائس، الذي أتمنى مخلِصاً ألا ينشر بتمامه على الإطلاق، يستدعي كولومبوس باطرادٍ نصوص الكتاب المقدس والأنبياء، زاعماً أنه مَدين بكل ما تعلم وكل ما أنجز لوحيٍ جاءه من الأعالي - إذ اصطفاه العَليُّ ليكتشف «العالم الَجديد» قبل أن تنتهي الأرض بأسرها في حدث عظيم كائنٍ لا محالة خلال الخمسين عاماً القادمة (مصدر سابق: ٦٥١).

يبدو أن هاريس لم يقرأ المخطوطة بعناية، فإن كولومبوس يحسِب تاريخ النهاية على أنه بعد ١٥٥ (لا ٥٠) عاماً. وعلى كلِّ حال، لا بد أن تقويم هاريس تسبب في إعاقة نشرها وترك أثراً بارداً على كل من رغب في دراستها. فلم تترجَم عن أصلها الخليط من اللاتينية والإسبانية إلى أي لغة حديثة، ولم تنشر حتى عام ١٨٩٤. ونشرت أول ترجمة لها إلى الإنجليزية عام ١٩٩١، في الوقت الأنسب للذكرى الخمسمائة![1]

---

(١) كان كولومبوس يعرف اللاتينية والإسبانية ويكتب بهما، ونادراً ما كتب بالبرتغالية أو الإيطالية. لكن أول نشرة (١٨٩٤) لكتاب النبوءات كانت ترجمة إيطالية أدرجت في «مجموعة الوثائق والدراسات التي نشرتها الهيئة الكولومبية الملكية» (*Raccolta di documenti e studi pubblicati della R. Commissione Colombiana*)، وكانت مجموعة من كتابات كولومبوس حررها سيساريه دي لوليس (Cesare de Lollis). أما النسخ الإنجليزية فهي: بريچام (١٩٩١)، ووِست وكلينچ (١٩٩١)، ورسكوني (١٩٩٧). وكل استشهاداتي نقلتها عن وست وكلينچ، إلا ما أشير إلى خلافه. كما أن مقالات وست الافتتاحية تقدم خلفية متميزة للدلالات الدينية وأهميتها.

على الرغم من تقويم هاريس السلبي إلا أن الذكرى الأربعمائة (١٨٩٢-١٨٩٣) كانت في مجملها حدثاً احتفالياً ركز على «الاكتشاف» العظيم، ومهارة كولومبوس كبحار، لا على معتقداته ودوافعه الدينية. وهو ما أثار اهتماماً جديداً، إذ ظهر سَيلٌ من الكتب ساعدت على تبديد بعض الأساطير الرومانسية حول كولومبوس. وهنا سأركز على نماذج معبرة قليلة (انظر كين ١٩٩٢ [١٩٥٩] ووست ١٩٨٧ لمزيد نقاش).

ظهر موقفان عامان تجاه كتاب النبوءات لم يختصا بجنسية معينة في نهاية القرن التاسع عشر، واستمرا إلى بداية القرن العشرين. أحدهما، مثل هاريس، ينظر إلى كتاب النبوءات باعتباره نتاج عقلٍ واهنٍ أو دليلَ خَرَف؛ والآخر يعترف بالوثيقة وبدوافع كولومبوس، ثم يطَّرِحُها جانباً.

هنري ڤِينيو (Henry Vignaud)، فرنسي أمريكي مثل هاريس، كان واحداً من أهم مُنتقِصي كولومبوس في بداية القرن العشرين. نظر إلى اعتقاد كولومبوس بالوحي الإلهي باعتباره «منظومة من الأفكار التي لا تسمح بالنقاش الناقد، ولن نلِجَها ها هنا، إذ يكفي منها ذكرُها» (واطس ١٩٨٥: ٨٣، هـ ٢٠). هذا النمط من ردود الفعل يُذكِّرني كثيراً بموقف العلماء من نشر كتاب فرويد «موسى والتوحيد»، أعني

اعتباره مصدر خجل (بالنسبة لهم)، وأنه دليل شيخوخة، أو إلقاء عبارة مغلفة حول تدينه أو هويته اليهودية، أو حول علاقته الأوديبية مع والده. أما أنا فأشعر أن الكتاب مفتاح لفهم أعمال فرويد كاملة (ديليني ١٩٩٨: ١٩٠ وما بعدها). كذلك الحال مع كتاب النبوءات - أعتقد أنه يفتح أفقاً إلى كولومبوس يُجلِّي لنا نظرته ولا يُشوِّشها.

أما القراءة الأكثر إيجابية في منتصف القرن فتلك التي قام بها مؤرخ جامعة هارڤرد صموئيل إليوت موريسون (Samuel Eliot Morison) في دراسته الكلاسيكية الرائعة «أميرال البحر المحيط» (*Admiral of the Ocean Sea*) (١٩٤٢). ومع أنه لا يكاد يَذكر كتابَ النبوءات، إلا أنه يُعلق على هدف كولومبوس البعيد بتحرير القدس. يقول موريسون بشأن مذكرات كولومبوس، المدخلِ الخاص بيوم ٢٦ ديسمبر ١٤٩٢، وهو اليوم الذي استوت فيه سفينة سانتا ماريا: «لا يمكن التشكيك في إخلاص كولومبوس في هذا الأمر. حتى في مثل المحنة التي مرت بها الرحلة، ارتحلت خواطره إلى استعادة القدس» (١٩٤٢، ١: ٣٩٢). مع كل هذا، وبالرغم من أن كل فصل مُروَّسٌ تقريباً بنص كتابي، إلا أن اهتمام موريسون كان منصباً على مهارة كولومبوس كبحار لا كصاحب نبوءة. لقد كان موريسون جزءاً من بعثة

كولومبوس من هارڤرد ١٩٣٩-١٩٤٠ التي استعملت اليوميات لتتتَبّع بأدق صورة ممكنة مسار الرحلة الأولى.

وقد أقر العالم الإيطالي چرانزوتو (Granzotto) مؤخَراً بكتاب النبوءات ومطمع كولومبوس في استعادة القدس، لكنه يشعر أن كولومبوس كان «تائهاً بين الأحلام، وجنح مبتعداً عن الواقع شيئاً فشيئاً ... نظراً لتقدمه في السن، وضعفه، وإحباطاته المستمرة؛ فتحول خيال كولومبوس تدريجياً إلى أداة للهذيان المجنون. وفي حالات هذيانه الخفيف اعتقدَ أنه اصطُفي من قبل الرب بسبب مآثره» (١٩٨٥: ٢٤٦). وثَم إيطالي آخر، هو تاڤياني، لا يجد إشكالاً في تدين كولومبوس أو فكرة حملة صليبية لاستعادة القدس؛ إذ يقول إنها كانت جزءاً من روح العصر وليست محل استغراب (١٩٨٥ [١٩٧٤]: ٧٩، ١١٣). من ناحية أخرى لا يكاد المؤرخ الإسباني فرنانديز-آرمستو (-Fernández Armesto) يلقي بالاً للجانب الديني عند كولومبوس ويصوره بأنه «طَموح اجتماعياً، حديث عهد بنعمة وأخرق اجتماعياً؛ ذاتي التعليم، عدواني الفكر، لكنه سهل الترويع؛ الساخط الهارب من الحقائق المؤلمة، والمغامر الذي ثبَّطه خوف الفشل» (١٩٩١: viii) كان هدفه الأسمى أن يكتسب ثروة ويؤسس سلالة نبيلة. وهناك نظرة أكثر تطرفاً «وصَمَتْه

بأنه قاسٍ وجشع، وربطَته بالعملية التي بها «خرب الغربُ العالمَ مدة خمسمائة عام، تحت راية نظرية السيد–العبد التي سُميت في ساعات نفاقنا الفاخر: عبء الرجل الأبيض (the white man's burden)».» (كين ١٩٩٢ : lii، ينقل عن كونيج).

وبينما اعترف معاصرو كولومبوس بتدينه الحقيقي و«لحظوا على الفور الأهمية الأُخـرويـة التي علقها كولومبوس على اكتشافاته» (وست ١٩٨٧ : ٤٩)، يبدو أن العلماء منذ عصر التنوير قد وجدوا صعوبة في التعامل مع، أو قبول، رؤية أو رواية كولومبوس كألفِيٍّ، لأنها تتعارض مع كلا الصورتين: الرومانسيةِ والبطولية اللتين روج لهما واشنطن إيرڤينج، و[صورةِ] البحَّار ذي المنهج العلمي عند موريسون.

«لا أحد من هـؤلاء العلماء أخذ على محمل الجد إمكانية أن تكون روحانية كولومبوس أو روحانية عصره قد ألهمته أيضاً الشروع في رحلاته الاستكشافية» (واطس ١٩٨٥ : ٨٣)، وأقل منهم من قال بأن غزو القدس كان هدفه الحقيقي. لكننا إن أردنا أن نفهم الرجل ورسالته من وجهة نظره هو فعلينا أن نهتم بهذا الأمر. وبدءاً من منتصف القرن، وازداد الأمر مع اقتراب الذكرى الخمسمائة والألفية، أصبح

بعض العلماء مهتماً برؤى كولومبوس الألفية المتعلقة بنهاية العالم. ولعل البداية كانت مع كتاب فيلان (Phelan) «مملكة الفرنسيسكان الألفية في العالم الجديد» (*The Millennial Kingdom of the Franciscans in the New World*) (١٩٥٦، نسخة مراجعة عام ١٩٧٠)، واستمر مع كتاب ألين ميلو (Alain Milhou) «كولومبوس وعقليته المسيَّانية في البيئة الفرنسيسكانية الإسبانية» (*Colon y su mentalidad mesiánica en el ambiente franciscanista español*) (١٩٨٣)، ولم يتوفر بالإنجليزية بعد، ومع النشرات العديدة لبولين موفيت واطس (١٩٨٥؛ ١٩٩٢؛ ١٩٩٣). وأسهم آخرون بإسهامات هامة في هذا الحقل العلمي، وقد استفدت كثيراً من عملهم،[1] لكن منشوراتهم ظهرت كالمعتاد في مجلات متخصصة - (مثل «قروسطيات وإنسانيات» [*Medievalia et Humanistica*] و«المراجعة التاريخية الكاثوليكية» [*The Catholic Historical Review*]) وسلاسل مثل «الذخائر الكولومبية» (*Repertorium Columbianum*) - يندر أن يرجع إليها عامة الناس.

---

(١) على سبيل المثال، هكتور أفالوس، كيْ بريجام، ڤاليري فلينت، عباس همداني، كارلا ووليام فيليبس، روبيرتو رسكوني، ليونارد سويت، وديلنو وست وأوجست كلينج. وقد ضربت صفحاً عن عدد من العلماء الذين كتبوا عن كولومبوس لأن اهتمامهم وتركيزهم ليس على تدينه أو كتابه «النبوءات».

قضايا حرجة:

والآن أرغبُ في أن أتناول بشكل ناقد ثلاثة إشكالات متعلقة بالقراءات والتفاسير المختلفة، بما فيها المتعاطفة، لكتاب النبوءات. الإشكال الأول هو عجز كثيرٍ من الأكاديميين عن رؤية الدين - لا سيما أشكاله المتعلقة بآخر الزمان - كعنصر مكوِّن للنظرة العالمية التي تترك أثراً حقيقياً على حياة الناس وأحداث التاريخ. الإشكال الثاني هو ما أسميه «العُرف الإنساني» الذي يَفترض أن كل البشر في كل زمان ومكان سواء، وأن الثقافة مجردِ ظاهرة مصاحبة. هذه النظرة، في ظني، سمحت للنقاد أن يلوموا كولومبوس على تبعات «المواجهة» بدلاً من دراسة العقائد والافتراضات الجوهرية الشائعة في ثقافته، والتي لا يزال كثيرٌ منها حاضراً في ثقافتنا. والإشكال الثالث نتيجةٌ مباشرة للثاني، وهو أنه حتى أولئك المؤرخون الأكثر تعاطفاً مع كولومبوس أخفقوا في تمثيل نظرته للعالم وبيئته الثقافية واقعاً، بمعنى أنهم فشلوا في «استعادة الواقع المتطرف لماضي القرون الوسطى» (مينوكال ١٩٩٤: ١٨) الذي قد يُكسبنا بدوره فهماً واضحاً بل عميقاً لكيفية تأثيره على أعماله. وفي المباحث التالية أناقش كل هذه الإشكالات على التوالي.

(١) الدين:

لقد درج الأكاديميون - كلما طغتْ نظرةٌ عالمية عصرانية تقدمية - على افتراض أن العقل والعلم سيحلان محل الأسطورة والسحر والدين ويجعلانها غائبة عن المشهد. في الواقع، اعتقد كثير منهم أن الدين سيموت بنهاية القرن العشرين. لقد مالوا إلى استبعاد الدين، أو فسروا الدين على الطريقة الماركسية أو الرأسمالية باعتباره ستاراً لمصالح أكثر «واقعية» وعملية واقتصادية وسياسية، أو فسروه على طريقة التحليل النفسي باعتباره وهماً جماعياً يُهدِّئ من خطرات الموت. فلا غرو أن تحيرهم ظاهرة نمو الانتماءات والصراعات الدينية، لا سيما مع قيام الأصولية في الولايات المتحدة وغيرها.

كما تبرز الإشكالات عندما يُعامَل الدين باعتباره ميداناً منفصلاً ومحدوداً من جوانب الحياة أشبه ما يكون بميادين الاقتصاد والسياسة والأنساب التي يُظن استقلالها، لا باعتباره نظرة شمولية للعالم تؤثر على كل مناحي الحياة الاجتماعية. فإذا عُد ميداناً منفصلاً سهل إقصاؤه. زد على ذلك، أن دراسات الأديان تميل إلى التركيز على العقائد والممارسات والنصوص المقدسة والطقوس والشخصيات الدينية المرتبطة باهتمامات الناس الروحية الشخصية، بدلاً من تحليل التوجه الكوني وكيفية تأثيره على تفسير الأحداث

التاريخية. ومع أن كليفورد چيرتز (Clifford Geertz) أشار قبل أكثر من قرن إلى أن «الدين يُناغِم الفعل الإنساني مع نظام كوني متخيل ويُسقِط صورَ النظام الكوني على سطح التجربة الإنسانية» (١٩٧٣: ٩٠)، إلا أنه علق بأن هذه العلاقة الديناميكية لا تكاد تبحث، وأضيفُ: خصوصاً في بلاد الغرب. يبدو أن ثمة (أو كان وما يزال) حظراً اجتماعياً على التحليل النقدي للرواية النصرانية الرئيسة وتداخلاتها مع الحياة والمؤسسات الدنيوية.

مظهر آخر من مظاهر النظرة العصرانية للدين هو القبول الواسع للفكرة القائلة بأن ثمة أدياناً عديدة، وأن بإمكان المرء أن يختار منها ما شاء أن يعتقد. فمثلاً، ملاحظة ڤاليري فلينت (Valerie Flint) بأن كولومبوس اختار عالم الفكر الذي ولجه (١٩٢٢: ١٩٥) تمثل سوءَ فهمٍ أصيلاً لكُنْه «المشهد التخيلي» الذي تحاول أن تبنيه. إذ يُعتقَد أن الدين حقل يمكن للمرء أن يدخله أو أن يخرج منه متى شاء، وأنه لا يشمل جوانب الحياة. لكنَّ هذا لم يكن مفهوم الدين في زمن كولومبوس، وما زال طريقة غير مجدية لفهم طيف واسع من العقائد والممارسات والثقافات الدينية في يومنا هذا. مثلُ هذه النظرة كانت ستمنعني من استيعاب حياة القرويين الأتراك الذين مكثت بينهم عدة أعوام أقوم ببحثي الأنثروبولوجي

(ديليني ١٩٩١). لكنني أظن أيضاً أنها تُشوه حقيقة مجتمعنا المعاصر، فعلى الرغم من «الفصل بين الكنيسة والدولة» لا تزال المفاهيم والمؤسسات النصرانية تواصل فرضها لسلطةٍ هائلةٍ على ميادينَ يبدو للناس أنها لادينية.

إن الفهم الحديث للدين لم يظهر بشكل كامل حتى أواخر القرن التاسع عشر عندما بدأ العلماء يضيفون اللاحقة «ـيَّة» (ism-) ليجعلوا من الصفاتِ أسماءً - بوذية بدل بوذي، وهندوسية بدل هندوسي - وهكذا يصنعون «ديناً» عن طريق فصل العناصر الروحية عن منهج حياةٍ متكاملٍ أو ثقافةٍ تضم الإثنية واللغة ونوع الطعامِ واللباسِ والممارسات الأخرى (انظر سميث ١٩٦٢؛ رولينچز ٢٠٠٢).

ولكن، في الحقيقة، يمكن للعلم والتقنية والدين أن تجتمع في نسيج واحد دون أن يترك ذلك نُدُوباً. فمثلاً، وجدتُ أن بإمكان القرويين الأتراك - رغم أن جُلهم أمِّيٌّ غير متعلم - أن يناقشوا ويفهموا ويصنعوا ويستعملوا ويصلحوا طيفاً واسعاً من الآلات والتجهيزات الحديثة، بما في ذلك السيارات والهواتف وأجهزة التلفاز؛ وأن يتحدثوا عن السياسة المحلية والدولية بشكل أكثر عمقاً من كثير من الأمريكان، وأن يفهموا شبكات الاقتصاد التي ترتبط بحياتهم. لقد بدَوا ذوي وعي حديث للغاية. ومع طول

المقام بينهم، أظهرت لي معرفتي بهم و«تجاوز الحدود» معهم كيف أنهم، على المستوى الأعمق، يعيشون في إطار نظرة للعالم أو الكون إسلاميةٍ صِرف. هذه النظرة للعالم تشمل كل حياتهم، وهي السياق الذي يعيشون فيه، كما أنها تقدم لهم إجابات عن الأسئلة الخالدة: من نحن، لِـم نحن هنا، وما مصيرنا؟ كما أَثَّرت تلك النظرة في طريقة لباسهم وطعامهم وشرابهم ونظافتهم الشخصية، بل كيف يتحركون وإلى أين يتجهون مكاناً وزماناً (انظر ديليني ١٩٩١). لم يكن ذلك منفصلاً عن بقية حياتهم، ولم يكن عبادة يمارسونها يوم الجمعة فحسب، أو صياماً خلال شهر رمضان. ومع أنهم أظهروا درجات متباينة من التدين إلا أن العلمانية لم تكن خياراً. لقد كانوا يعتقدون أن ما يرونه بدهيٌّ لكل عاقل، ولم يستوعبوا كيف أنني لم أعتنق الإسلام، أو أستسلم له على حد تعبيرهم. إن الإسلام بالنسبة لهم ليس ديناً بين أديان أخرى، بل هو «الدين». إنه الدين الحق الأوحد الذي أُنزل أولاً على إبراهيم، وما محمد إلا نبي يدعو الناس إلى تلك العقيدة الأصيلة. لقد سمعوا بالطبع عن النصرانية وسألوني عنها. لكنها بالنسبة لهم ليست ديناً صحيحاً مستقلاً [كالإسلام]،[1]

---

(١) إن فكرة [وجود] أديان مستقلة متعددة كلها صحيح هي نظرة غربية ليبرالية حديثة جداً لا يشاركهم فيها كثير من العالم، حتى المتدينون من أتباع الديانات التوحيدية.

بل هي تحريف للكتاب الحق والدين الحق الذي ليس هناك غيره.

هكذا تماماً كان يَنظر كولومبوس ومعاصروه إلى «نِحلتَي» (*sectas*) اليهود والمسلمين. فحديثه عن تحرير الهنود من الضلال يبين أن الدين [بالنسبة إليه] لم يكن مسألةَ اختيار وإنما مسألة حق أو باطل؛ ليس ثمة إلا سبيل رُشدٍ واحد. في الواقع، لم يكن لديهم تصورٌ لفكرة البدائل. لم تكن حركة الإصلاح البروتستانتي قد نشأت بعد، ولم يكن يُنظر إلى اليهودية والإسلام باعتبارهما دينين مختلفين، بل فرقتين ضالتين مبتدعتين. بالطبع كان هناك أناس متشككون في بعض مظاهر هذه النظرة للعالم، وبعضهم كان أقل تديناً وعناية بممارساتهم وعاداتهم (قارن إدواردز ١٩٨٨)، لكنَّ العلمانية، وما يصحبها من تحجيم الدين، لم تكن خياراً، فضلاً عن الإلحاد.

عندما يفهم المرء أنْ ليس ثمة إلا «دين» واحد، وسبيلُ حقٍّ واحدٌ لتحصيل الخلاص، وصورة كونية واحدة تضفي معنى على حياة الإنسان وطموحاته، يدرك حينها إن كان من ذوي العاطفة لـِمَ كان تحويل الآخرين [إلى دين آخر] مسؤولية ملحة. وهذا لا يعني إنكار أن النصرانية كانت أيضاً أداة بالنسبة للملكة إيزابيلا والملك فرديناند لتوحيد ممالك

قشتالة وأراجون وليون في دولة أكثر مركزية - فوجود دافعٍ لا يلغي الآخر.

وبينما كان يُنظر إلى تحويل وطرد اليهود والمسلمين كضرورة لإقامة أمة نصرانية واحدة، اختلفت طرائق تحقيق هذا الهدف. فكان هناك تعميدٌ جماعي في بعض المناطق دون تلقين للعقائد - وهي حالٌ يمكن للجماعة في ظلها أن تستمر سراً في ممارساتها التعبدية كالصلاة والامتناع عن أكل لحم الخنزير. ولكن فيما بعد أصبحت هناك مطالبات بالتسوية في ممارسات الحياة اليومية «في لباسك ونعلِك وزينتك، وطعامك وآداب مائدتك، وطبخك اللحم كما يطبخونه [النصارى]؛ وفي مِشيتك وإعطائك وأخذك، وأهم من ذلك كله، في حديثك، فتنسى اللسان العربي بقدر استطاعتك» (رولينچز ٢٠٠٢: ١٧، ناقلاً عن إليوت ١٩٨٩: ٥٣). وهذا قريب جداً مما وصفتُ من أثر الإسلام على الحياة القروية التركية (ديليني ١٩٩١). «الدين» في كلا الحالين لا يعني مجموعة عقائد فحسب، وإنما أسلوب حياة. ولأن مثل هذه العادات صعبُ التغيير إلى حد بعيد، آثر البعض في إسبانيا القرنِ الخامس عشر أن يُنفى على أن يَتحول عن دينه.

(٢) العُرف الإنساني:

إن النقد الأنثروبولوجي لهذا الموقف كان وما زال

مُلِحاً: «فصورة طبيعة بشرية ثابتة مستقلة عن الزمان والمكان والظرف، وعن الدراسات والمهن، وعن الموضات العابرة والآراء المؤقتة، ربما تكون وهماً؛ وماهية الإنسان قد تكون متداخلةً مع أين هو، ومن هو، وماذا يعتقد، بشكل لا يمكن معه فصلها عنها» (چيرتز ١٩٧٣ : ٣٥). بمعنى آخر، ليس ثمة كواليس نتسلل إليها فنجد الإنسان العام؛ فالبشر إنما يتشكلون ضمن ثقافات معينة. لكن هذا لا يعني أن الثقافات منغلقة تماماً وأنه لا يوجد بينها تداخل؛ بل بإمكان المرء أن يتعلم ثقافة أخرى - وهذا بالفعل ما يصنعه علماء الأنثروبولوجيا أثناء العمل الميداني. ولكن إن أردنا فهم كولومبوس (أو غيره)، فعلينا أن نحاول قدر المستطاع أن نعيد بناء العالم الذي عاش فيه. وبينما يبدو أن بعض من كتب عن كولومبوس من المؤرخين صنع هذا، إلا أنهم ما زالوا يُسقطون عليه فهماً حديثاً، مما يترك انطباعاً بأن الزمان والمكان إنما هما مجرد «موضة عابرة». إنهم يقرون بأن عالمه كان مختلفاً، لكن الاختلافات تعرض في أساسها على أنها اختلافات في الواقع لا المشاعر والإدراك، وهكذا يخفقون في إضفاء معنىً على الطريقة التي أَثَّرت بها رؤيته للعالم على ما كان يراه حوله، وعلى تفسيره إياه. ويقال إن «بُوَاس» (Boas)، مؤسس الأنثروبولوجيا الأمريكية، هو مخترع الرأي الذي أصبح شائعاً بين علماء الأنثروبولوجيا: «العين الرائيةُ لسانُ

التراث،» أي أننا نرى ما درَّبتنا ثقافتنا على رؤيته. فماذا «رأى» كولومبوس إذن؟ كيف كان تصوره للعالم، وكيف أثَّرت تلك الصورة على مشروعه وعلى تفسيره [لذلك المشروع]؟

(٣) الجيوأخرويات في عالم كولومبوس:

عاش كولومبوس في عالم نصراني كاثوليكي أحاط بحياته ووضَعها في معناها الكوني الأوسع. وقدمت له النصرانية الهداية الروحية والتوجيه كليهما في الزمان والمكان، وهو ما أسماه ديلنو وِست «الجيوأخرويات» (geoeschatology).[1] فلم تقتصر هذه النظرة على تقديم المصطلحات المطلوبة لتصور المشروع، بل قدمت ما كان يحتاج من مصطلحات لتفسير ما رأى، وما وجد، والتعبير عن أهمية ذلك. وكان في الوقت ذاته بحاراً محنكاً كثير الترحال. لكن معرفته الأكثر علميةً بالأرض الفيزيائية والملاحة لم تتعارض مع نظرته الدينية للعالم، بل كانت بالأحرى محويَّة بداخلها. فالتعارض بين العلم والدين أمر مُحدثٌ ولَّدَه التصور بأنهما متمانعان.

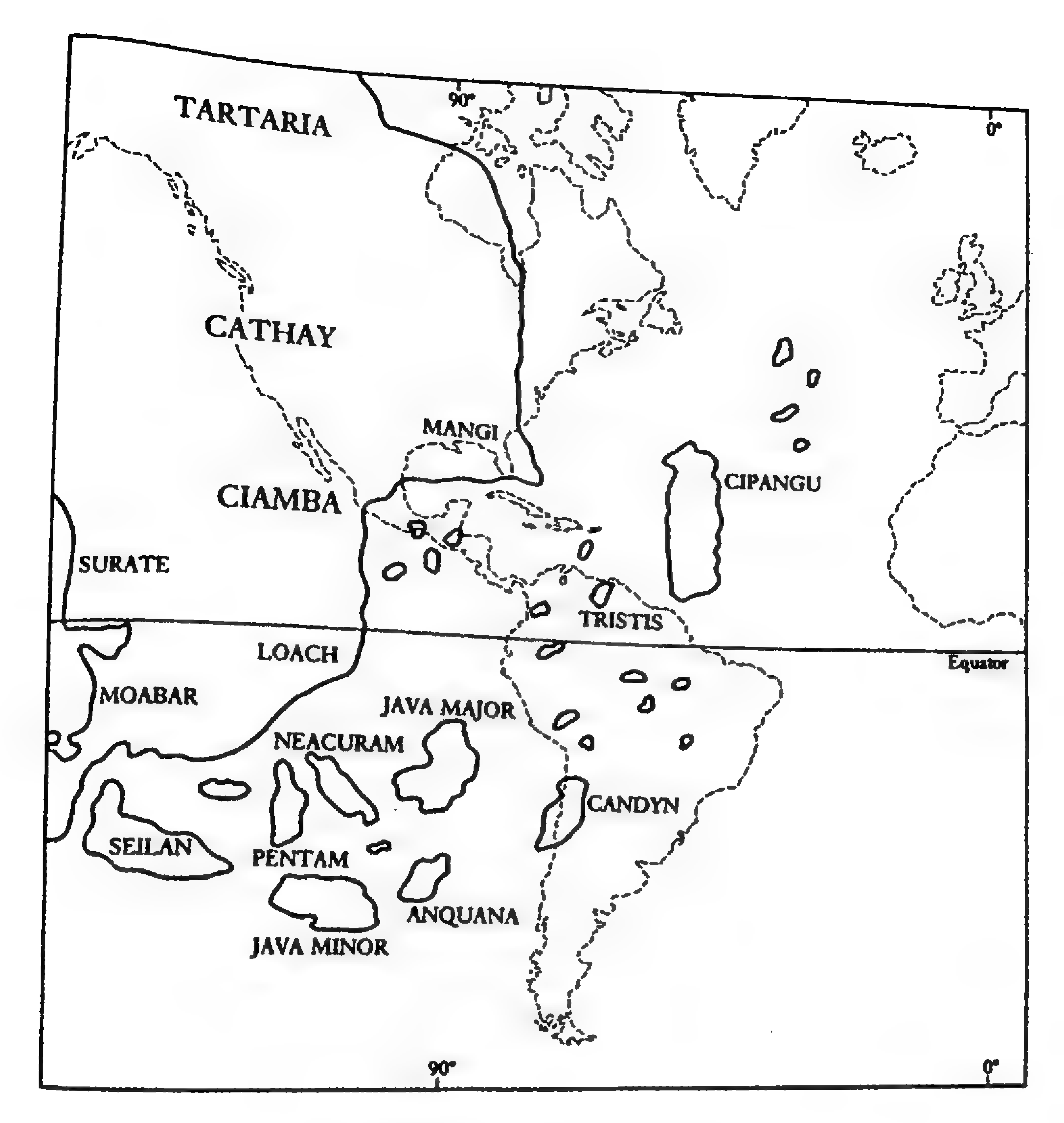
---

(١) وآخرون نحتوا مصطلح «الجغرافيا الزمنية» (chronogeography) محاولين التعبير عن التقاء الزمان والمكان في نظرة دينية أو فلسفية معينة للعالم (مثلاً، برتراند رسل في [ترجمة] وودوارد ١٩٨٥: ٥١٩)؛ و«فلسفة الأرض» [الجيوصوفيا] (geosophy) (رايت ١٩٦٦: ٨٣). وقد أخذ چيليس (٢٠٠٤) هذا المصطلح الأخير وتوسع فيه.

وخلافاً لأغنية چيرشوين الشهيرة («كلهم ضحكوا من كريستوفر كولومبوس عندما قال إن الأرض كروية»)، كان كولومبوس وكثير من معاصريه يعرفون أن الأرض كروية وليست مسطحة (انظر رَسِل ١٩٩١).[1] والقضية الرئيسة في الجدالات التي وقعت بين كولومبوس والعلماء واللاهوتيين الذين شكلوا اللجان الموكلة بدراسة خطته لم تكن حول ما إذا كانت الأرض مسطحة أم كروية، وإنما حول محيطها وسَعة البحر المحيط، وبالتالي ما إذا كان بالإمكان عبوره (انظر الشكل ١). رفضت اللجان خطة كولومبوس تكراراً ومراراً لا لأنها تَحدَّت صورة الكون في النصرانية (فهي لم تتحدَّها) وإنما لظنهم أن حساباته خاطئة. فوفقاً لحسابات كولومبوس، كان يَعتقد أن المحيط أضيق بكثير مما اعتقد العلماء واللاهوتيون المتبحِّرون.

---

(١) إن الفكرة المغلوطة القائلة بأن كولومبوس هو من أثبت كروية الأرض لا تزال حاضرة في الثقافة الشعبية، بل سمعتُها فعلاً عام ٢٠٠٤ في مؤتمر أكاديمي! ويزعم «رَسِل» أن نظرية «الأرض المسطحة» هي من اختراع العلماء في القرن التاسع عشر إذ حاولوا أن ينأوا بأنفسهم عن «لاعقلانية» عالم القرون الوسطى. لقد كان معظم معاصري كولومبوس يعلمون أنها كرة، على الرغم من أن بعض خرائط العالم (*mappaemundi*) مع كونها دائرية، يمكن أن تقتضي الاستدارة لا الكروية بالضرورة (انظر كذلك أندروز ١٩٢٦). ومن المفارقات أن كولومبوس قرر في أثناء الرحلة الثالثة أنها كالكمثرى، وأن الفردوس في أعلاها كحَلَمة الثدي (كولومبوس، ١٨ أكتوبر، ١٤٩٨؛ انظر موريسون ١٩٦٣: ٢٨٦؛ جيْن ١٩٨٨، ج ٢: ٣٠ وما بعدها؛ وست ١٩٩٢أ: ٢٧٥).



تصور مارتن بيهايم للأطلنطي

[الشكل ١: ما ظن كولومبوس أنه سيجده مقابلَ ما هو موجودٌ فعلاً. من كتاب «كولومبوس» لفيليب فرنانديز -أرمستو (١٩٩١). بترخيص من ديڤيد هايام وشركاه.]

لقد أفادت آراء كولومبوس من نظريات وطرائق بيير دايِّي (Pierre d'Ailly) (١٣٥٠-١٤٢٠)، وهو فلكي ومُنجِّم(١)

(١) كان دايِّي يؤمن بكونٍ للأجرام السماوية فيه من كواكب ونجوم تأثير على الظواهر كلها – ليس على حياة الناس فحسب بل على التاريخ البشري. بل إن دايي رسم خريطة بُرج المسيح (سمولر ١٩٩٤: ٧)!

مؤثر وكاردينال ذو شأن، ساهم كمبعوث إلى مَجمع قُسطَنس (Constance) عام ١٤١٤ في رأبِ «الشقاق العظيم» بين البابوات المتنافسين - وهو انقسام داخلي غالباً ما نُظر إليه كإرهاصٍ لـ «نهاية الزمان». قرأ كولومبوس بشغف كتاب دايّي «صورة العالم» (*Imago mundi*) الذي أورد الآراء المعتبرة لبيكون وأرسطو وسينيكا وبلينيوس بأن المحيط لا يغطي من سطح الأرض القَدرَ الذي يعتقده الكثير. وبدلاً من أن يكون الأمر تعارضاً بين العلم والدين، أظهر عمل دايّي، ولو لمدة من الزمن، أنهما متداخلان.

أفاد كولومبوس كذلك من الكتاب المقدس (أي في حساب الزمن الذي استغرقته السفن لبلوغ مناجم الذهب والعودة إلى القدس) كما أفاد من أسفار الأبوكريفا[1] «ومكتوب فيها أن ستة أسباع العالم يابسة (فهو مأهول) ولا يغطي الماءُ سوى سُبع واحد (٢ عزرا ٦ : ٤٢)» (واطس ١٩٨٥ : ٨٢). كل هذه [المصادر] اقتضت أن آسيا أوسع وأن المحيط أقل سعة مما كان يعتقد. وبناء على خبرته

(١) الأبوكريفا (Apocrypha): هي الأسفار الأربعة عشر التي تزيدها الكنيسة الكاثوليكية وبعض الكنائس الأرثوذكسية على أسفار العهد القديم بينما يَعُدها اليهود والبروتستانت من قبيل المشكوك في صحته. [الكاملي]

الملاحية ودراسته لهذه المراجع وغيرها «قدَّر كولومبوس أنه لا يلزمه إلا أن يبحر مسافة ألفين وخمسمائة ميلٍ تقريباً من جزر الكناري باتجاه الغرب ليصل إلى بلاد المشرق» (مرجع سابق). وبدلاً من أن يكون عقبة كؤوداً، يبدو أن كولومبوس نظر إلى البحر المحيط باعتباره شكلاً من أشكال الطريق السريع يمكن أن يصل أوروبا بآسيا (وست ١٩٩٢أ: ٢٦٠).

ومع أن كولومبوس كان يعتقد أن الأرض كروية الشكل، إلا أنه كان يعيش في كون بطلمي[1] مركزي الأرض؛ فآراء كوبرنيق لم تكن قد شاعت، ولم يكن جاليليو قد وُلد بعد. في كون كولومبوس، تدور الشمس والقمر والكواكب والنجوم حول الأرض، معلَّقة في أفلاكٍ بلورية شفافة، يهيمن على أعلاها المحرك الأول، وهو ما جعلها نظرة مقبولة لدى الكنيسة. إلا أن هذه الكلمات لا تحمل معان كافية للتعبير عن مشاعر الناس. لكن أندريس بيرنالديز (Andrés Bernáldez) يعبر عن ذلك بشكل أمثل. فجدير أن نقتبس فقرة مطولة من كتابه «تاريخ الملِكين الكاثوليكيَّين» (*Historia de los Reyes Católicos*):

---

(١) بطلِميّ (Ptolemaic): منسوب إلى الجغرافي والفلكي الشهير كلاوديوس بطليموس (١٠٠-١٧٠م) الذي قال بأن الأرض هي مركز الكون. [الكاملي]

باسم الرب تعالى. كان رجل من جَنَوة، بائعٌ للكتب المطبوعة، يتاجر في أرض الأندلس هذه، حيث كانوا يدعونه كريستوڤال دي كولون. كان رجلاً ذا عقل راجح دون أن يدرس الكتب كثيراً، ماهراً جداً في صناعة الكوزموغرافيا [رسم خرائط الكون] وتقسيمات العالم. أدرك مما قرأ في بطليموس وكتب أخرى، إلى جانب بصيرته هو، كيف وبأي طريقة تَشكَّل العالم الذي ولدنا فيه والذي نتحرك بداخله. وقد جَعل هذا [العالَمَ] داخلَ أفلاكِ السماوات، فلا يلمسُ جانباً منها، ولا يستقرُ على شيء، وإنما هي الأرضُ والمياهُ تحيط بها الحرارةُ داخل **قبةِ السماء الجوفاء**.[1]

كان هذا بلا شك كوناً أصغر حجماً وأنعمَ مُستراحاً من الكون الذي نعرف. لم يكن ثمة اعتقاد بكون متسع، أو «سنين ضوئية» أو لانهائيةٍ للمكان والزمان، فضلاً عن «الثقوب السوداء»، بل الأرض تطفو في قبة جوفاء لكنها مغلقة، تحيط بها الحرارة (يفترض من الشمس) والأفلاكُ التي تمسك الكواكب والنجوم.

إن النظرة الكونية التي تَعُد الأرض مركزاً لـم تُعق

(١) لم يطبع كتاب (*Historia*) حتى منتصف القرن التاسع عشر، لكن نسخاً مخطوطة منه كانت متوفرة. الترجمة الإنجليزية للفقرة مأخوذة من يونج (١٨٩٣، التأكيدات لي، بدون ناشر).

حسابات كولومبوس الملاحية إذ كانت السماوات قد خُطِّطت، وحركات النجوم أضحت معلومة، ولكن وفقاً لموريسون «لم تشكل الملاحة السماوية جزءاً من تدريب ملاح أو رُبَّانٍ محترف في أيام كولومبوس أو بعده بزمن طويل» (١٩٤٢، مجلد ١: ٢٤٣). عوضاً عن ذلك، اعتمد كولومبوس على ما يعرف بـ «تقدير الموضع» (dead reckoning) الذي لم يتطلب أكثر من بوصلة وإبرة، وطريقةٍ ما في حساب سرعة المركب والمسافة، ولم يكن شيء منها بالغَ الدقةِ حينئذ.[1]

ولكن عند التخطيط للانتقال من مكان معلومٍ إلى آخر استعمل أيضاً خرائطَ البورتولان (portolan charts)، وكانت خرائطَ دقيقة إلى حد كبير تُصور كُتل اليابسة والخطوطَ الساحلية والتياراتِ والرياح، لكنها لا تكاد تجدي نفعاً في البحار غير المدونة على الخريطة. كانت هذه هي خرائطه العملية المستعملة في حرفة الملاحة. أما الخرائط الأخرى المعروفة بـ «خرائط العالم»

---

(١) انظر لورا أكيرمان سمولر (١٩٩٤: ١٢ وما بعدها) حول الطرق التي فهم بها منجمو القرون الوسطى حركة النجوم وكيف رسموا خريطتها. انظر موريسون (١٩٤٢، ج ١: ٢٤٣-٢٥٣) حول منهج «تقدير الموضع» ومهارات ملاحية أخرى توفرت أو استعملت من قبل كولومبوس.

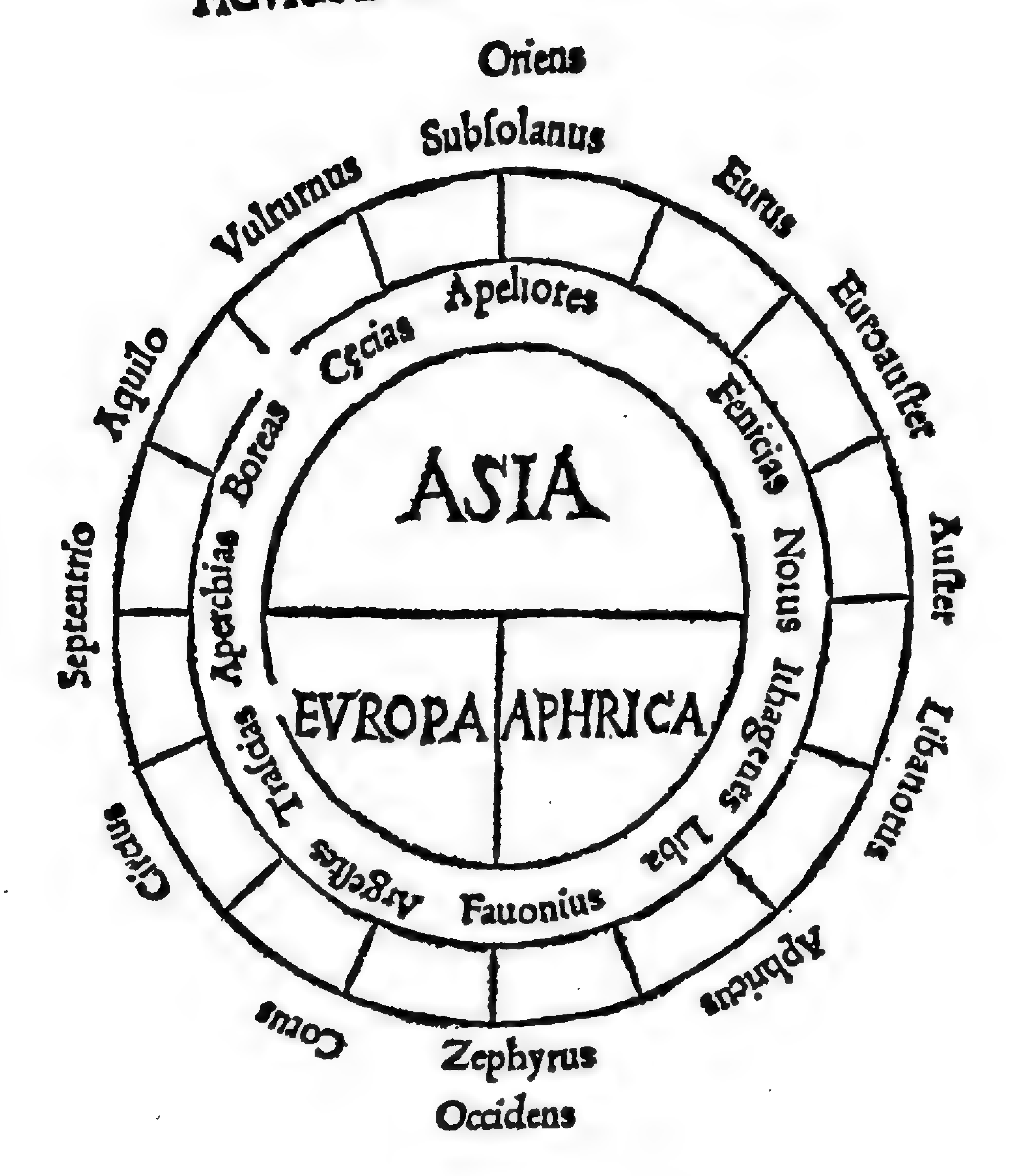
(*mappaemundi*) فكانت للتدليل على الأهمية الدينية للجغرافيا - «وكان القصد منها بيان «فلسفة الأرض» [أو الجيوصوفيا] الكتابية وليس إعطاء أماكن أو اتجاهات دقيقة ... فهي تفتقر إلى نقطة مرجعية للبعد الزماني أو المكاني الذي يسمح للناظر بالتمييز بين القريب والبعيد، أو الآن وحينئذ» (چيليس ٢٠٠٤: ٣٩). فلم يقصد منها على الإطلاق أن تستعمل كخرائط عملية أو حتى لرسم صورة صحيحة للعالم المحسوس؛ وإنما كانت بمثابة «المثيل الخرائطي لتصاوير القرون الوسطى القصصية» بل كانت تسمى «تواريخ» (وودوارد ١٩٨٥: ٥١٤). فقد صَورت أحداثاً مهمة في تاريخ النصرانية من الخلق إلى يوم الدينونة، بالإضافة إلى مواضع جغرافية تخطيطية. وكان وُدوارد، وهو مؤرخ خرائط بارز، قد أعرض عن الرواية التقدمية الحداثية، واتخذ - ربما دون قصد - مساراً أنثروبولوجياً (ثقافياً)؛ فدرس هذه الخرائط لا كطلائع للخرائط الحديثة - أو «ذخائر لمعرفة الجغرافية القائمة حينئذ» - بل بعباراتهم هم «كتواريخ مصورة أو عروض تعليمية تحمل معنى أخلاقياً على خلفية جغرافية» (مرجع سابق: ٥١٥)، حيث مُثِّل الزمان والمكان في الوقت ذاته.

الأشهر من خرائط العالم في القرون الوسطى خرائطُ (T-O) [أو دائرة الأرض] (الشكل ٢)،[١] والتي تُظهر عالماً يتألف من ثلاث قاراتٍ (غالباً ما يرمز إليها بأبناء نوح الثلاثة: يافِث = أوروبا، سام = آسيا، وحام = إفريقيا). هذه القارات كانت تُشكل المسكونةَ (*ecumene*)، ويحيط بها المحيط العالمي (انظر أندروز ١٩٢٦: ٦٩؛ أيضاً كامبل ١٩٨٧؛ وستريم ٢٠٠٢؛ وودوارد ١٩٨٧). ولعل خرائط (T-O) بعالمها الثلاثي كانت سبباً في عدم قدرة كولومبوس على «رؤية» ما وجد؛ لأنه لم يكن ثمة في مخيلته مكانٌ لعالم رباعي، فقد سعى جاهداً وببسالة أن يُدخل جزر الكاريبي والساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية داخل نموذجه الثقافي. وقد استغرق الأمر زمناً قبل أن يتمكن الناس في أوروبا من

---

(١) «في القرن السابع رسم إيسيدور أسقف إشبيلية خريطة للعالم صور فيها المفاهيم الجغرافية في أوروبا على مدى تسعمائة عام. وهي مجرد (T) داخل (O). يمثل النصف الأعلى من الدائرة آسيا، والربعان السفليان يمثلان أوروبا وإفريقيا. وعند تصالب الـ (T) - مركز الأرض - تقع القدس، المركز الروحي والتاريخي للثقافة النصرانية. لكن اتساع المعرفة الجغرافية هَدَم هذا التصور. أما صعوبة تقبل التصورات الجديدة فيبينها هذا الكتاب الفلورنسي الذي نشر بعد عودة كولومبوس بأكثر من ثلاثة أعوام بقليل. ولا تزال خريطة العالم الإيسيدورية حاضرة بصورتها المجردة، كما أن الأسقف ليليو متشكك في أنباء الاكتشافات، «إلا إن صدق المرء الأنباء الغريبة جداً بأن ملك إسبانيا، كما يقولون، يرسل سفناً هذه الأيام لاستكشاف شُطآن جديدة»» (هف ١٩٨٠: ٣٣؛ والاقتباس المضمَّن منقول عن ليليو).

استيعاب فكرة أن العالم يتألف من أربعة أجزاء، لا ثلاثة فحسب.



[الشكل ٢: مثال على خرائط (T-O). من كتاب «في أصل العلوم وشرفها» (*De Origine & laudibus scientiarum*)، للأسقف زاكاياس ليليو (فلورنسا ١٤٩٦). بترخيص من مكتبة جون كارتر براون بجامعة براون]

لم تكن القدس دائماً في قلب خريطة العالم، لكنها أصبحت كذلك بدءاً من القرن الثالث عشر، وهي الحقبة ذات الصلة بنظرة كولومبوس للعالم (وودوارد ١٩٨٥: ٥١٥). ولكن لمدة طويلة كان يُتخيل أن القدس هي المركز

(الروحي) للعالم، وأنها محور الأرض، أو سُرة العالم (قارن فلينت ١٩٩٢: ٣-٤١). كان هذا مهماً لأمرين: [الأول] أنها الموضعُ الذي جرَت فيه كثير من الأحداث الكتابية، و[الثاني] أنها بالنسبة لكولومبوس ومعاصريه المكانُ الذي سوف تقع فيه الأحداث الـمُتَنَبأ بها (كما هو الحال مع الأصوليين اليوم). ولكن قبل كل شيء، لا بد أن تعود إلى أيدي النصارى.

إن كانت خرائط القرون الوسطى قد أعطت فكرة عن الصورة المكانية للعالم، فإن النظرةَ الرؤيويةَ النصرانيةَ للعالم المستقاةَ من سفر الرؤيا قد قدمت العنصر الزماني. في هذه النظرة، سوف يكون قبل نهاية العالم طواعِين وأوبئة وزلازل وقوارع أُخَر غيرُ معهودة. وسيحاول المسيح الدجال مشترِكاً مع «زانية بابل» أن يصرف المؤمنين عن دينهم. لذا كان لزاماً على المؤمنين أن يبذلوا وسعهم في تحويل اليهود وغيرهم من غير المؤمنين إلى النصرانية، وأن يستردوا القدس، وأن يُعيدوا بناء الهيكل قبل عودة المسيح ثانية.

لا تزال الرؤيوية منطلقاً قوياً للتقاليد الدينية التوحيدية.[١] ففي النصرانية، صرح اللاهوتي الألماني كيزَمان (Kasemann)

(١) درج وصف الأديان «التوحيدية» في كتابات بعض الباحثين؛ والصواب أن اليهودية والنصرانية ليستا على التوحيد. [الكاملي]

بأن «الرؤيوية هي أم اللاهوت النصراني كله» (نقلاً عن مكچين ١٩٧٩: ١)، لكنها أكثر بروزاً في بعض الأحايين. ففي حقبة القرون الوسطى كانت شائعة جداً، لا سيما بين جماعاتٍ مُعينة كالفرنسيسكان. وقد كانت هذه هي الجماعة التي اتصلَ بها كولومبوس كثيراً، ربما منذ أن عاش مع زوجته «فيليبا بيريستريلا إي مونيز» (Felipa Perestrella y Moniz) على جزيرة بورتو سانتو، حيث ولد نجله دِييچو. ومن المعروف أنه كان بالقرب من هذا الموضع رهبنةٌ فرنسيسكانية (وست وكلينچ ١٩٩١: ٥٦).

ويعرف اتصاله بالفرنسيسكان على نحو أفضل منذ أن وصل إلى إسبانيا أيِّـماً عام ١٤٨٥، حيث يُعتقد أنه دعا في دَير «لا رابيدا» (La Rábida)[1] بينما كان يجر ابنه الصغير دييچو في عربة وراءه. ويبدو من المرجح جداً أنه مكث هنالك مدة من الزمن وناقش خططه للرحلة، لأن راهباً مقيماً، هو فراي أنطونيو دي مارتشينا (Antonio de Marchena)، كان من رتب للقاء كولومبوس الأول بالملكة إيزابيلا. كما أن راهباً آخر من «لا رابيدا» هو فراي خوان بيريز (Juan Perez) أصبح صديق كولومبوس المقرب ومستشاره الشخصي.

---

(١) لا رابيدا (*La Rábida*): اسم مشتق من الكلمة العربية «الرباط». [الكاملي]

وفي عام ١٤٩١، عندما رُفضت خطة كولومبوس، يبدو للمرة الأخيرة، وعزم على أن يجرب حظه مع ملك فرنسا، رتب بيريز لجلسة أخرى مع الملكة التي طلبت بدورها من اللجنة أن يعاد تقويمه للمرة الأخيرة. فلما رفضوه مجدداً وغادر كولومبوسُ البلاطَ الإسباني عازماً على أن يُقدم مشروعَه إلى ملك إنجلترا أو ملك فرنسا، تدخل لويس دي سانتانچل (Luis de Santangel)، وأقنع فرديناند وإيزابيلا بإعادة النظر. ففَعلا ذلك، وأرسلا رسولاً على عجلٍ يأمر برجوع كولومبوس إليهم. كما أقام بيريزُ القُداسَ في الثاني من أغسطس من عام ١٤٩٢ قبيل مغادرة [كولومبوس] من بالوس. وعند عودة كولومبوس من رحلته الأولى نزل في دير «لا رابيدا» أسابيع عدة، وحدَّث بيريزَ عن عجائب ما رأى، وحاول إقناعه بأن يصحب الرحلةَ الثانية ليرى تحول الهنود [إلى النصرانية] (وست وكلينچ ١٩٩١: ٥٦-٥٧).

وسَّع الفرنسيسكانُ المخططَ الرؤيوي - متأثرين بآراء أباتيِّ القرون الوسطى يواقيم الفلوري - برسم ثلاث مراحل أو عصور: «العصر الممتد من آدم إلى زمن المسيح، ويقابل الإله الآب؛ وكان هذا كنيسة العامِّي. والعصر الممتد من زمن المسيح إلى عام ١٢٦٠، ويقابل الإله الابن؛ وكان هذا كنيسة

الكاهن. وتنبأ يواقيم بأن عصراً ثالثاً لروح القدس سيبدأ عام ١٢٦٠. وسيكون هذا كنيسة الرهبان» (فيلان ١٩٧٠: ١٤). كنيسة الرهبان ستكون حقبة من السلام والفقر الرسولي يعيش فيها كل الناس حياة تأملية. واعتقدَ بعض اليواقيميين [أتباع يواقيم] أن المرحلة الثالثة - التي تعرف أيضاً بـ«عصر الروح» أو بشكل ذي دلالة «عصر الذهب» - كانت قد بدأت في ١٢٥٤/ ١٢٥٥. على أية حال، كان كولومبوس يعتقد أنه يعيش في العصر الثالث وأن عقارب ساعة الأخرويات تدق.»

إعادة النظر في قضايا حرجة:

لا يمكننا على الإطلاق أن نَعرف شخصية كولومبوس، أو فيم كان يفكر، أو ما الذي دفعه؛ لا يمكننا الدخول إلى عقله. لكن المعنى ليس شيئاً مستوراً داخل العقل أو المخ؛ وإنما يُبنى من المخزون الرمزي الموجود في ثقافة ما، و«الثقافة معلنةٌ كما أن المعنى معلن» (چيرتز ١٩٧٣: ١٢)، لذا يمكن بحثه. «من القرن الرابع حتى منتصف التاسع عشر كان الدين النصراني هو القوة الرئيسة التي تشكل العقلية الأوروبية والأمريكية. ... [حتى إن] الكنيسة أثبتت بأنها حينما لا تكون الأم (*mater*) فهي على الأقل قالب (*matrix*)

الفكر الغربي» (وايت ١٩٤٢: ٤٥).[1] لقد قدمت النصرانية مخزون الأعمال الرمزية السائدة، والقالبَ الروائي الذي اكتسبت فيه الرموزُ معانيها.

وقد كتب المؤرخ الشهير ويليام مكنيل (William McNeill)، معترفاً بإسهامات علماء الأنثروبولوجيا الثقافية في هذه المسألة، كتاباً أسماه «الأُسطَاريخ» (*Mythistory*) ليُظهر القرابة بين الأسطورة والتاريخ. فيقول بأنه حتى يصبح الماضي تاريخاً «لا بد أن تُجمع الحقائق في قالبٍ يمكن فهمه ... [زد على ذلك أن] ترتيب هذه الحقائق من أجل صناعة التاريخ يتضمن أحكاماً ذاتية واختيارات عقلية» (١٩٨٦: ٤-٥)؛ فالقاعدة الأسطورية هي التي غالباً ما تقدم القالب الذي يحدد الترتيب. وبهذا المعنى، فإن الأسطورة ليست تلك الأباطيل، وإنما هي السياق الكوني الأوسع الذي يضع فيه الناس حياتهم ويفسرونها. وكما قال قديماً عالم الأنثروبولوجيا برونيسلاف مالينوفسكي (Bronislaw Malinowski) فإن «الأسطورة ليست مجرد حكاية تُروى، بل هي حقيقة تُعاش» (١٩٥٤: ١٠٠). وعلى الرغم من أن مالينوفسكي كان يتحدث عن سكان جزر تروبرياند

(١) وببصيرة ثاقبة يستمر في القول بأن النسخ المعَلمَنة للنصرانية حتى عندما لم تكن متدينة في ظاهرها، أصبحت «العقيدة الليبرالية لحركة التنوير» (١٩٤٢: ١٤٥).

(Trobriand) الذين أقام بينهم، إلا أن ذات الأمر ينطبق على كولومبوس، وعلى مجتمعنا. فالأسطورة الدينية ذات تداعيات اجتماعية؛ وبالعكس، فالأحداث الاجتماعية إنما تُصنع لتتحدث إلى الأفكار الدينية.[1] إن الأسطورة النصرانية ليست متعلقة بالماضي فحسب، وإنما بالمستقبل.

في مقال رائع بعنوان «الأسطورة النصرانية، التاريخ النصراني»، زعم لين وايت (Lynn White) - الذي نحت مصطلح «الأسطورة التاريخ» (myth-history) قبل مكنيل - بأن «النصرانية دون غيرها من الأديان أصرت متهورةً على أن أسطورتها حصلت فعلاً في الزمان. فلم تكن مجرد قولبة مسرحية للعامل المشترك بين كل التجارب الدينية، بل كانت كذلك سلسلة من الأحداث التاريخية» (١٩٤٢: ١٥٥). يقول وايت إن واحدة من سمات الحياة داخل نظرةٍ نصرانيةٍ للعالم هي طبيعتها ثنائيةُ البعد، فلكل حادث دلالة مزدوجة. فالنصراني يعيش في الزمان والأزل، ويغلب عليه تفسير الأشياء من هذا المنظور الثنائي المؤلف من التاريخ والأسطورة. و«تُعرَّف الأسطورة بأنها القولبة الزمانية للأمور المشاهدة من وجهة نظر الأزلية غير الزمانية» (وايت ١٩٤٢:

---

(١) نادراً ما يُدرَّس التاريخ الغربي بهذه الطريقة، ولهذا يظلُّ بابٌ مهمٌّ من أبواب الفهم موصداً. وأذكر عندما كنت طالبة بكلية هارفرد اللاهوتية كيف أصبح التاريخ الغربي فجأةً أكثر منطقية لما درست بعض المواد في التاريخ النصراني.

١٤٨). وهكذا أمكن كولومبوس أن يتخيل اكتشافه كمأثرة تاريخية أنجزها عام ١٤٩٢ برعاية الملكين الكاثوليكيين، وأهم من ذلك كحدث أُخروي سبق التنبؤ به. فلما وُضع الحدث في ذلك السياق، أصبح من المعقولِ الافتراضُ أن أحداثاً معينة أخرى ستكون على أَثَرِها جزماً. باختصار، شكلت الأسطورة الكتابية ما رأى، وما وجد، وماذا عنَت له.

إن كانت هذه هي الطريقة التي كان يفكر بها كولومبوس، فما أنجزه لم يكن «اكتشافاً» بقدر ما كان كشفاً - خطوةً مهمةً لكشف مراد الرب. ولعل من المصادفة أن كلمة (Apocalypse) [سفر الرؤيا] تعني (Revelation) [الكشف].

الخاتمة:

لِمَ نهتمُّ لأفكارِ وأعمالِ إنسان عاش قبل أكثر من ٥٠٠ عام؟ ما الذي يسهم به ذلك للمجتمع المعاصر؟ إنَّ وضع كولومبوسَ والمواجهةَ داخل سيناريو رؤيوي نصراني يعِين على إقالته من جزء من المسؤولية عن تبعات المواجهة [مع السكان الأصليين]. كثير منا قد يجد السيناريو مزعجاً، أو حتى بغيضاً، لكننا لا نستطيع أن نلوم كولومبوس شخصياً على تبنيه له. ليس فقط لأنه لم يكن ثمة بدائل قابلة للتطبيق بالنسبة له كما هي متاحة للأصوليين اليوم، بل لقد كان قد مات قبل أكثر من ستة أعوام عندما تغيرت نظرة صديقه «لا كاساس» حول الهنود.[1] وليس المقصود هنا الاعتذار بحال من الأحوال عن الخراب الذي حصل، لكن هذا يوسع دائرة النقاش. فانتقاد كولومبوس وشجبه بقوة كما صنع ويصنع الكثير، يُغفل السياق الثقافي الذي تحرك فيه والأفكار الدينية التي شكَّلته.

---

(١) كانت النظرة الإسبانية إلى استعباد الهنود تتغير تدريجياً. فقد صرحت الملكة إيزابيلا بأنه لا يمكن أن يُسترقَّ رعاياها، وهو أمر [ملكي] تجاهله كولومبوس بحجة أن أولئك الرقيق كانوا قد قاوموا فوقعوا في الأسر. لكن المناظرة التي وقعت بين لاس كاساس وسيبولفيدا (Sepulveda) في ١٥٥٠-١٥٥١، أي بعد وفاة كولومبوس بمدة طويلة، أظهرت أن كثيراً من مشاهير الإسبانيين كانوا يترخَّصون في مسألة الرق.

إن انتقاد المؤرخين بسبب عدم اهتمامهم بهذا السياق يقف عند حد؛ فحتَّى المعلقون المتعاطفون الذين عرضوا السياق الديني أخفقوا في الدراسة الناقدة للأفكار الدينية ذاتها وآثارها الهدامة. إذ يبدو أن التقويم الناقد للدين يُعد محظوراً (taboo) حتى في أوساط المؤرخين العلمانيين. مثل هذا النقد خارجٌ عن إطار هذه الدراسة التي تطاولت بما فيه الكفاية، لكنه جزء من مشروعي الأشمل؛ وهنا سأشير في عجالة إلى ما ينبغي أن يفعل في تقديري.

إن السيناريو الرؤيوي الألفي الذي استثار كولومبوس لم يمُت بموته، بل عبَر الأطلسيَّ مع «التطهُّريين» (Puritans) الذين أسسوا «أورشليم الجديدة» في إنجلترا الجديدة [نيو إنجلاند] (New England). ومن خلال التطهريين، دخلت هذه الأفكار إلى الاتجاه الأمريكي السائد حيث أَحكمت قبضتها القوية على الخيال الأمريكي، فساعدت على تشكيل رؤية معينة لمكان الولايات المتحدة في التاريخ، وكيفية فهم الأمريكيين لأنفسهم ومصيرهم. وبالنسبة لكثيرين، لا تزال الأسطورة النصرانية تشكل الأساس الذي تُبنى من خلاله المعاني وتُفهم أحداث العالم. كما أن الفرع الرؤيوي في النصرانية ما زال يتنامى. كل ما عليك فعله هو أن تدخل مكتبة نصرانية لتدرك هذا.

إبّان حرب الخليج الأولى ازدهرت الكتب الرؤيوية التي تنبأت بنهاية العالم. على سبيل المثال: تساءل كتاب «قيام بابل: علامة نهاية الزمان» (*The Rise of Babylon: Sign of the End Times*) (داير ١٩٩١) على وجه الغلاف عما إذا كان «جيلنا هو الجيل الأخير؟» وصُوِّر صَدام حسين على أنه المسيح الدجال، واعتُبرت إعادتُه بناءَ بابل علامةً على أن الهرمجِدُّون على الأبواب. ثم وُصم [صدام] مؤخراً بـ«الشيطان»، أما «بابل» فقُصِفت حرفياً.[١] إن سلسلة الروايات الرؤيوية الذائعة الصيت والمعروفة بـ«الـمُخلَّفِين» (*Left Behind*) مؤشرٌ واضح على أن طريقة التفكير هذه لا تزال حيةً ترزَق في الولايات المتحدة.[٢]

ومنذ مطلع الألفية، أصبح من الواضح جداً أن السيناريو الرؤيويَّ النصرانيَّ ذو شعبية كبيرة ليس في تفسير الأحداث الراهنة فحسب، بل أيضاً في إخراجها إلى حيز التنفيذ. كثيرون ينظرون إلى الحرب في العراق بهذا المنظور، ومع

---

(١) كانت ومازالت [عام ٢٠٠٦] لغة الكتاب المقدس، لا سيما النصوص الرؤيوية، جزءاً من [خطاب] رئاسة بوش ومن حملته الانتخابية عام ٢٠٠٤. فمثلاً، استحضَر نائبُه ديك تشيني مخاوف الهرمجِدُّون إذا ما انتُخب كيري رئيساً (نيويورك تايمز، ١٩ أكتوبر، ١٩٠٤).

(٢) سلسلة مؤلفة من عشر روايات [الصواب: ١٦ رواية]، كتبها تيم لاهاي وجيري جِنكِنز، وجملة ما بيع منها جميعاً يفوق الـ ٦٠ مليون نسخة، وغالباً ما اعتلت قائمة الكتب الأكثر مبيعاً.

ذلك تظل القدس خاطفةَ الأضواء، وقِبلة الهوى الرؤيوي. فقد انضَمت جماعةٌ صغيرة لكنها مخلصٌة من الأصوليين النصارى إلى جماعة مماثلة من الصهاينة لتفجير قبة الصخرة في القدس، حيث يقوم مسجد للمسلمين، من أجل بناء الهيكل الثالث [على أنقاضها].[1] إنْ حدثَ مثلُ هذا فلا شك أن الهرمجدون ستكون على أَثَره. وعلينا أن نتساءل: ما العنصر الجاذب في السيناريو الرؤيوي؟ لِـمَ يود البعض أن يكونوا جزءاً من هذا الحدث الكوني المدمر؟ هل يريدون بالفعل أن يكونوا ممن يشهد «نهاية الأيام»، ولم؟ أم أنهم يفترضون أنهم سيكونون من المصطفَين، المخلَّصِين، «المخطوفين» (raptured)؟[2] ما هي الآثار الاجتماعية لمثل

---

(١) انظر «نهاية الأيام: الأصولية والنضال من أجل جبل الهيكل» (*The End of Days: Fundamentalism and the Struggle for the Temple Mount*)، للصحفي الإسرائيلي البارز چيرشوم چورينبيرچ (٢٠٠٠). انظر كذلك «اتفاقية أوسلو وجبل الهيكل: دراسة حالة لحركة تأسيس الهيكل» (*The Oslo Accords and the Temple Mount: A Case Study of the Movement for the Establishment of the Temple*)، وهي ورقة قدمها موتي إنباري في المؤتمر السنوي السادس لمركز الدراسات الألفية، نوفمبر ٢٠٠٢، ونشرت عام ٢٠٠٣ (هيبرو يونيون كوليج آنيوال [Hebrew Union College Annual] ٧٤: ٢٧٩-٣٢٣)؛ و«مشكلة عام ألفين بالنسبة لإسرائيل» (*Israel's 2YK Problem*) لجفري چولدبيرچ (مجلة نيويورك تايمز، ٣ أكتوبر، ١٩٩٩).

(٢) يعتقد النصارى أن المسيح ﷺ ينزل إلى الأرض في آخر الزمان فـ«يَخطف» أتباعه إلى السماء للقاء الرب ويُخلِّف من دونهم. [الكاملي]

هذه العقائد الإقصائية؟ لم يُنظر إلى العالم القادم أو السماء باعتبارها هدفاً أسمى مِن جعل هذا العالم ملاذاً للجميع؟[1]

ومع توفر الأسلحة البيولوجية والكيميائية والنووية بأيدينا، علينا أن نسبر الوسائل التي من شأنها أن تشتت قوة الأسطورة الرؤيوية قبل أن تُصبح نبوءتُها المدمرةُ ذاتيةُ التحققِ واقعاً.

(١) تنظر الكاتبة إلى الدين بمنظار أنثروبولوجي صِرفٍ متأثرٍ بتصورها للدين النصراني. [الكاملي]